

نظرة إلى الطُّرق الصُّوفيَّة
على
ضوء القرآن



وقف السلیمانیة

أ. د. عبد العزيز بايندر
عضو هيئة التدريس في كُليَّة الإلهيات في جامعة إسطنبول

التَّرجمة: د. محمد روزي باقي
المُراجعة والتَّدقيق: جمال أحمد نجم

إسطنبول 2017

عنوان التّوزيع والعلاقات

وقف السُّلَيْمَانِيَّة

Hoca Gıyaseddin Mah. Şifahane Sok. No:20

34470 EMİNÖNÜ / İSTAN BUL

Tel: (0212) 513 00 93 Faks: (0212) 511 21 69

www.hablullah.com

www.kurandersi.com

www.suleymaniyevakfi.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِمَّن بَعْدَ ذَلِكَ ۖ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ۚ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (النور، 47/24-50)

فهرس الموضوعات

10	المُقَدِّمة
	1- التَّصَوُّف (حوارٌ مع زعيم إحدى الطُّرق الصُّوفِيَّة المشهورة في تركيا) 11
12	2- الاستعانةُ بأصحاب القبور
18	3 - التوسُّل والوسيلة
21	4 - كلُّ مسلمٍ وليُّ الله
24	5 - إغاثةُ الأولياء
25	6 - مَدَد الشَّيخ
26	7 - التوسُّلُ بحُرمة الشُّفعاء في الدُّعاء
27	8 - الإعانةُ بخوارق العادة
32	أ - مصدر القوَّة الخارقة للعادة
34	ب - حياة الرُّوحانيِّين
35	ت - الموت والنُّوم
37	9 - الشِّرْك الذي تخبَّط فيه المسلمون
42	الوثيقة الأولى: بيان السُّلطان رشاد
43	الوثيقة الثَّانية: بيان أنور باشا
43	الوثيقة الثَّالثة: بيان دعوة الأقطار الإسلاميَّة إلى الجهاد
50	10 - قتال الشُّهداء
51	11 - رجال الغيب
54	12 - الأرواح العلويَّة والسُّفليَّة
55	13 - الرُّسل في القرآن الكريم
56	أ - وظائف الرُّسل عليهم الصَّلابة والسَّلَام
56	ب - حدود تصرُّفات الرُّسل عليهم الصَّلابة والسَّلَام
58	14 - علم الغيب
66	15 - نزول الوحي على شيوخ الطُّرق الصُّوفِيَّة

67	16 - كَوْنُ الْوَلِيِّ وَارْتِثًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
68	17 - الْمُعْجِزَةُ
69	18 - حَقِيقَةُ الْكِرَامَةِ
71	19 - الْإِسْتِدْرَاجُ
72	20 - الْعِلْمُ اللَّدْنِي (عِلْمُ الْبَاطِنِ)
76	21 - الْمُكَاشَفَةُ لِلشُّيُوخِ
77	22 - الْفِرَاسَةُ
80	23 - الْإِلْهَامُ
81	أ - إلهام الفجور
83	ب - إلهام التقوى
84	24 - الشَّفَاعَةُ
85	أ - دِفَاعُ الشَّيْخِ عَنِ مُرِيدِهِ
86	ب - تَوْسُطُ الشَّيْخِ بَيْنَ مُرِيدِهِ وَبَيْنَ اللَّهِ
87	25 - الرِّابِطَةُ
91	26 - الْعِبَادَةُ
119	أ - الشَّرْكَ
94	ب - الْإِسْتِعَانَةُ
97	27 - الزَّعْمُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِبَعْضِ شِيُوخِ الطُّرُقِ الصُّوفِيَّةِ
99	28 - اللَّبَّاسُ
100	29 - عَلَى الشَّيْخِ أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمًا
101	30 - اِنْتِشَارُ الْإِسْلَامِ
101	31 - الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ
105	32 - الْمَذَاهِبُ
106	33 - الْاجْتِهَادُ
109	34 - الْعُودَةُ إِلَى الْقُرْآنِ
110	أ - الْمُعْجِزَةُ

112	ب - معجزة رسول الله
113	ت - كلُّ مؤمنٍ هو وارثُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
115	ث - الذِّكْر
117	ج - التَّعْلِيمُ فِي الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ
125	الخاتمة

المُقَدِّمَة :

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على رسولنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه ومن اتَّبَعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ . أمَّا بعدُ ...
سألني بعضُ النَّاسِ عن أفكار بعضِ شُيوخِ الطُّرُق الصُّوفِيَّةِ ومُرِيدِهِمْ ، وبعد البحثِ في تلك الأفكار مُقَارِنًا إيَّاهَا بِالْقُرْآنِ الكَرِيمِ _ الَّذِي يُعْتَبَرُ المَصْدَرَ الأَسَاسِيَّ لِدِينِنَا الإِسْلَامِيَّ _ رَأَيْتُ أَنَّ تلكَ الأفكارَ أَقْرَبُ إلى الخُرَافَةِ والأوهامِ من أنْ يَكُونَ لها أَيَّةُ عِلاَقَةٍ بِدِينِنَا الإِسْلَامِيَّ الحَنِيفِ .
رَغِبْتُ في أنْ أُجْرِيَ حِوَارًا مع أحدِ شُيوخِ تلكِ الطُّرُق ابتغَاءَ الوَصُولِ إلى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ ؛ طَرِيقِ القُرْآنِ الكَرِيمِ الَّذِي لا يَأْتِيهِ الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، لَكِنَّ الطَّرْفَ الثَّانِيَّ طَلَبَ مَنِّي بَيَانِ غَرَضِي وَأفكارِي في رسالةٍ قَصِيرَةٍ قَبْلَ اللِّقَاءِ لِيَتَسَنَّى لِلجَمِيعِ المُناقِشَةُ والوصولُ إلى الحَقِيقَةِ ، وقد أَجَبْتُهُم فيمَا أَرادوا .

وبعد سِتَّةِ أَشْهُرٍ كانَ اللِّقَاءُ بِالشَّيْخِ ومعه رؤساءُ الطُّرُق الصُّوفِيَّةِ المشهُورَةِ في تَرْكِيَا ، وَجَرى بَيْننا حِوَارٌ طَوِيلٌ سَجَّلْتُهُ في رسالةٍ نُشِرَتْ بعد إِدخالِ بعضِ التَّعْديلاتِ اللَّازِمَةِ بِشَرطِ عَدمِ التَّغْيِيرِ في فِحوى الكَلامِ بِهَدَفِ تَسهيلِ الفَهِمِ للقارئِ ، وقد لَقِيتُ تلكَ الرِّسالةَ اِهْتِمامًا كَبِيرًا ، وَتَناقَلها النَّاسُ فيمَا بَيْنَهُم ، كما أَنَّها نُشِرَتْ في بعضِ الصُّحفِ والمِجَلَّاتِ ، ثُمَّ قَرَّرْتُ أنْ أَطْبِعُها في كِتابٍ مُستَقِلٍ ، وقد انْتَشَرَ هذا الكِتابُ بِشَكلٍ كَبِيرٍ في تَرْكِيَا وأورِيا ، ويزدادُ الطَّلَبُ عَلَيهِ حَتَّى يَومِنا هذا .
وقد اقتصرتُ الطَّبْعَةَ الأُولى من الكِتابِ على اللِّقَاءِ المَذكورِ أعلاه مع بعضِ الإِضافاتِ ؛ وهي عِتراضاتُ بعضِ شُيوخِ الطُّرُق الصُّوفِيَّةِ ، وما تَلَقَّيْتُهُ من الأَسْئَلَةِ المُتَعَلِّقَةِ بالمَوضوعِ .

ثُمَّ هَدَّبْتُ الكِتابَ وأَخْرَجْتُهُ لِلطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ بعد أن أدرجته تحت عنوان :
"الشَّرِكُ الَّذِي عَرَّقَ المُسْلِمونَ فِيهِ" ، كما أَضَفْتُ إِلَيهِ بعضَ مَواقِفِ العُلَماءِ في عَهدِ السُّلطانِ عبد الحميد الثَّانِي ، وبعضَ الوِثائِقِ المُتَعَلِّقَةِ

بقرار الدولة العثمانية بالدخول في الحرب العالمية الأولى، ثم غيّرت اسمه إلى: "نظرة إلى الطرق الصوفية على ضوء القرآن"، ذلك بأن الاسم الأول لم يكن يعكس محتوى الكتاب.

وكذلك فيما يخص الطبعة الثالثة فقد نَقَحْتُها وسَلَّمْتُها للنشر بعد أن أعدت كتابة فصل "التعليم في المدارس الدينية" من جديد، وسيجد القارئ فيه أن المنهج الجديد يختلف تماماً عن المنهج القديم.

أما عن الشيوخ المذكورين في الحوار فقد ذكرتُ اعتراضاتهم باسم "الشيخ"، وأما عن الباقيين من تلاميذهم فذكرتُ اعتراضاتهم باسم "المريد"، ثم إنني أحببتُ على اعتراضاتهم باسمي "بايندر".

والذي كتبته هنا هو ما رأيته مخالفاً للنص القرآني، فكل ما تُريده هو محاولة لفت الأنظار إلى الآيات القرآنية وتطبيقات النبي صلى الله عليه وسلم للوحي بين أصحابه الكرام ابتغاء التمسك بهما؛ أي القرآن الكريم وتطبيقات (سنة) النبي صلى الله عليه وسلم لأن ما عدهما لا يعدو كونه أفكاراً وآراءً للبشر مما لا يمكن أن يفرض على أحد.

هذا، ومهما تحزيتُ الإتيان فلن أبلغ الكمال، ولكني بذلتُ كل ما في وسعي ليكون هذا العملُ مما أبتغي به مرضاة الله تعالى، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب.

مما ينبغي الإشارة إليه أيضاً أن بعض الانتقادات لم تُدرج في كتابنا هذا لأنها انتقادات بعيدة عن المنهج العلمي، ومن أراد أن يُشير إلى ملاحظاته لما تضمنه الكتابُ وفق المنهج العلمي فسنكون مُستعدين للاستماع وأخذ تلك الملاحظات بعين الاعتبار.

1. التصوف (حوار مع "محمود أفندي" زعيم إحدى الطرق

الصوفية المشهورة في تركيا) :

المريد : قبل الخوض في التفاصيل، أريد أن أعرف: هل تقبل التصوف بحد ذاته أم ترفضه؟

بايندر: وما المقصود بالتصوف عندكم؟

المُرِيد : التَّصَوُّفُ هو كما عَرَفَهُ الإِمَامُ الرَّبَّانِيُّ فِي مَكْتُوبَاتِهِ إِذْ يَقُولُ :
"عَلِمَ أَنَّ لِلشَّرِيعَةِ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ هِيَ العِلْمُ والعَمَلُ والإِخْلَاصُ، وَإِذَا لَمْ تَتَحَقَّقْ
هَذِهِ الأَجْزَاءُ لَمْ تَتَحَقَّقْ الشَّرِيعَةُ، وَمَتَى تَحَقَّقْتَ الشَّرِيعَةَ تَحَقَّقَ رِضَا الحَقِّ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي هُوَ فَوْقَ جَمِيعِ السَّعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ،
"وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ" (التَّوْبَةُ، 72/9)، فَكَانَتِ الشَّرِيعَةُ مُتَكَفِّلَةً بِجَمِيعِ
السَّعَادَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ يَحْتَاجُهُ المَسْلَمُونَ بَعْدَ مَجِيءِ
الشَّرِيعَةِ".¹

بايندر : لَكِنَّ الَّذِي تَشْتَغِلُونَ بِهِ مُخَالَفٌ لِمَا ذَكَرْتَهُ أَنْتَ !

المُرِيد : لَيْسَ فِي أَعْمَالِنَا مَا يَخَالَفُهُ !

بايندر : نَحْنُ مَبْدُونَا هُوَ أَنْ لَا نُخَالَفَ إِلَّا مَا خَالَفَ القُرْآنَ الكَرِيمَ مُخَالَفَةً
وَاضِحَةً، فَلَوْ كَانَتْ آرَاؤُكُمْ الصُّوفِيَّةُ تُخَالَفُ المَذَاهِبَ الإِسْلَامِيَّةَ مِثْلَ
المَذْهَبِ الحَنْفِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَالمَالِكِيِّ وَالأَشْعَرِيِّ وَالمَاتَرِيْدِيِّ، أَوْ تُخَالَفُ مَا
نُسِبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ التَّوَاتُرِ؛ لَمَا اعْتَرَضْنَا
عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ تُخَالَفُونَ القُرْآنَ وَتَتْرَكُونَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُمَكِّنُ
السُّكُوتُ عَنْهُ.

2. الاستعانة بأصحاب القبور²

المُرِيد : بَلَّغْنَا أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ هَذَا الحَدِيثَ: "إِذَا تَحَيَّرْتُمْ فِي الأُمُورِ فَاسْتَعِينُوا
مِنَ أَصْحَابِ القُبُورِ".³ فَمَا السَّبَبُ الَّذِي أَدَّى بِكُمْ إِلَى إنْكَارِهِ مَعَ أَنَّ
الاستعانة المقصودة بأصحاب القبور هي الاعتبارُ بهم ؟ !
بايندر : لَوْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا تَقُولُ، فَلِمَاذَا قَالَ "استعينوا" وَلَمْ يَقُلْ "اعتبروا"؟
يُفْهَمُ مِنْ عِبَارَةِ "استعينوا" أَنَّ الحَدِيثَ مَوْضُوعٌ لِأَنَّ الاستعانة طَلِبُ العَوْنِ،
وَفِي سُورَةِ الفَاتِحَةِ يُعَلِّمُنَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أَنَّ الاستعانة لَا

¹ مَكْتُوبَاتِ الإِمَامِ الرَّبَّانِيِّ، المَكْتُوبُ 36، 50/1، اسطنبول.

² كَانَ هَذَا الحِوَارُ مَعَ مَحْمُودِ أَفَنْدِي (مَحْمُودِ أَوْسَطَا عَثْمَانَ أَوْغَلُو) وَجَمَاعَتِهِ

³ مَحْمُودِ أَوْسَطَا عَثْمَانَ أَوْغَلُو، رَئِيسُ هَيْئَةِ تَفْسِيرِ رُوحِ القُرْآنِ 82/2، اسطنبول 1992

تكونُ إلا بالله وحده، أي فلا يُطلبُ العونُ إلا من الله سبحانه، وعليه فهذا القولُ مُعارضٌ للقرآن الكريم.

ألا يوجدُ سببٌ لقراءتنا الفاتحة في كلِّ صلاةٍ واستحضارنا هذا المعنى ؟ !
ألا يكبرُ عليكم أن تُظاهروا وتؤيدوا من يفترى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أفلا تعقلون؟ أيعقلُ أن يصدرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يخالفُ القرآنَ مع أنَّ وظيفته الأصليةُ تبليغُ ما أنزلَ إليه؟ ثم إنَّ هذا القولَ لم يسمعه أحدٌ منه صلى الله عليه وسلم، ولم يُقلْ بمثله أحدٌ في عهد الصَّحابة ولا التابعين، كما أنَّ هذا الحديثَ المزعومَ لم يردْ في الكتب الصحيحة، وقد قلتُ هذا من قبل مراراً ولكن لم يأتِ منكم جوابٌ يُسمُنُ أو يُعني من جوع !

المُريد : يكفينا أنه موجودٌ في كتاب "كشْفُ الخفاء" للعجلوني، وله مكانةٌ كبيرةٌ في الحديث، وقد نقلَه عن ابن كمال باشا من كتابه "الأربعين".
بايندر : "كشْفُ الخفاء" صنَّفه العجلوني ليميزَ به الصحيحَ من الضعيف مِمَّا اشتهرَ على ألسنة الناس من الأحاديث، لذا كثرَ فيه الأحاديثُ الموضوعية، وفي مقدمته ينقلُ عن الحافظ ابن حجر قوله: "... وإمَّا لا أصلَ لها البيَّنة، فالناقلُ لها يدخلُ تحت ما رواه البخاريُّ في ثلاثياته من قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ نَقَلَ عَنِّي ما لم أَقُلْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ".⁴

ورتبته ترتيباً أبجدياً وعزا الأحاديثَ إلى مُخرَجِها، لكنَّ هذا الحديثَ لم يذكرْ فيه شيئاً سوى أنه نقلَه من كتاب "الأربعين" لابن كمال باشا. ولو أطلعنمُ عليه جيداً لَمَا وجدنمُ له أيُّ أصلٍ⁵، فما على الذين وضعوه إلا أن

⁴كشْفُ الخفاء لإسماعيل بن محمد العجلوني 8/1، بيروت 1408هـ/1988م
⁵"الأربعون" لابن كمال باشا، الورقة 360، مكتبة السليمانية، أسعد أفندي 1694. شيخ الإسلام ابن كمال باشا من العلماء المشهورين في عهد السلطان سليم ياووز، وُلِدَ في مدينة توقاد عام 1469م وتوفي في اسطنبول عام 1534م، فيكون حينئذٍ بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرُ من تسعمئة عام، ثم يأتي بما يزعمُ أنه حديثٌ دون أيِّ سند، بل ويخالفُ به القرآنَ مخالفةً بيَّنة، وهو عَوْضُ أن ينكرَ لذلك

يتبأوا لأنفسهم مقاعد من النار.

المُرِيد : ألا نستعين أحياناً بالإنسان الحي؟ بلى، وهكذا روح الولي الميت، فهي كالسيف المسلول من غمده،⁶ فهو أكثر قدرة على الإعانة، وهؤلاء الأولياء أصحابُ قدرةٍ على التصرف.

بايندر : أمّا موضوع الاستعانة بالأحياء فسنعفُ عليه فيما بعد.⁷ وأمّا ما ذكرتموه من تحوّل روح الولي إلى سيفٍ مسلولٍ بعد الموت؛ فهل له سندٌ من الكتاب أو السنة؟

رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المتوفى نُصلي ونُسلمُ عليه كلّما ذكرناه أو زُرنا قبره، أي أننا نسألُ له الرحمة من الله والسعادة الأبدية، أمّا أن نستعين به فهذا مُخالِفٌ لصريح النصِّ الشرعي، وإلا فما الفرقُ بيننا وبين النصاري الذي يدعون نبيَّ الله عيسى بنَ مريم عليه الصلاة والسلام لينصّروهم؟!

إنّ ما تدعونه ليس له أصلٌ في شريعتنا، بل هو ضلالٌ عن الصراط المُستقيم. تقولون : إنّ الولي إذا مات صارَ أكثرَ قدرةً على التصرف والإعانة؛ فهل بين أيديكم دليلٌ يثبتُ قولكم؟

المُرِيد : إنّ خروجَ روح الولي عند موته كالسيف المسلول من غمده هو قولٌ منسوبٌ لبعض كبار أهل العلم.

بايندر : لقد بيّنَ اللهُ تعالى في كتابه الكريم بطلانَ ما تدعونه فقال: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (الزمر، 42/39). فهذه الآية تدلُّ على أنّ الله يُمْسِكُ الأرواحَ في مكانٍ ما في البرزخ حتّى تقوم الساعة.

الحديث مصدرًا يلجأ إلى التفسيرات الفلسفية التي لا تجدها في أيّ دينٍ من أجل

إثبات صحّة ذلك الحديث الموضوع.

⁶ "روح الفرقان" لمحمود أفندي 67/2.

⁷ سندرسُ هذا الموضوع تحت عنوان: "الإعانة بخوارق العادة".

أما عن الموتى فقال تعالى: « وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » (فاطر، 22/35).
فكروا في قول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في الآخرة كما تقول
الآية الكريمة التالية: «... وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (المائدة،
117/5).

فإذا كان رسول الله المسيح عيسى بن مريم نفسه عليه الصلاة والسلام لا
علم له بما أحدثت أمته من بعده، فكيف يُقبل أن تكون روح الولي
كالسيف المسلول من غمده؟!

واستمع إلى هذه الآية الفاصلة بيننا: « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ »
(الأحقاف، 5/46).

وقد فسرت بعض تفاسير القرآن الكريم المنشورة باللغة التركية كلمة
"الدعاء" في الآية بمعنى "العبادة"، فبدت الآية كأنها تتحدث عن عبادة
الأوثان، وهذا خطأ لأن الآية تشمل جميع أنواع الشرك الموجودة قديماً
وحديثاً.

أما التفاسير العربية فهي تؤول الدعاء بالعبادة، وهذا لا يُشكل خطراً لأن
الدعاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم هو "... العبادة..."⁸، وقال: "
الدعاء مُحُّ العبادة"⁹. فإذا قرأ العربي مثل هذا الشرح فهم أن الدعاء هو
العبادة، أما التركي فإذا قرأ الترجمة لا يستطيع أن يستوعب هذا المعنى،
حيث إن كلمة "الدعاء" حين تُترجم إلى اللغة التركية بهذا الشكل
(çağırma, yalvarma) فإنها تشمل العبادة لكن العكس غير
صحيح.

وترجمة "من دون الله" بـ "غير الله" تؤدي في ذهن القارئ التركي إلى فهم

⁸ الترمذي، الدعاء 1، رقم الحديث 3372

⁹ الترمذي، الدعاء 1، رقم الحديث 3371

خاطيٍ لآئته يفهم من عبارة "غير الله" أن هناك شيئاً ثانياً يختلف عن الله الذي نؤمن به، أي يفهم منها أن الداعين رفضوا وجود الله بالمطلق فتركوا دعاءه بالكليّة ودعوا غيره، في حين أن أولئك الذين اتّخذوا من دون الله أولياءً نظروا إلى هؤلاء المدعويين على أنّهم أعظم من سائر البشر، وأنهم أكثر قرباً من غيرهم إلى الله تعالى.

لا يوجد في الدنيا كلّها كافرٌ يُنكرُ وجودَ الله عزَّ وجلَّ، لكنّ المشركين اتّخذوا وسطاءَ بينهم وبينه سبحانه، قالَ بهم الأمرُ إلى أن نسبوا إلى أولئك الوسطاء ما لا ينبغي لهم من صفاتٍ مخصوصةٍ لله تعالى، وكلُّ ذلك يحدثُ بسبب الجهل والتقليد الأعمى للأباء.

إنّ نسبةً صفةٍ مخصوصةٍ لله إلى أحدِ المخلوقات هو اتخاذه شريكاً لله في تلك الصّفة، وهذا هو الشّركُ بعينه.

ويظنُّ بعضُ النَّاسِ أنّ المُلحدين يُنكرون وجودَ الله تعالى، ولكنّ الحقيقة هي أنّ المُلحدين يُؤمنون بوجود الخالق لأنّهم إذا وقعوا في الشّدّة دعوا الله وحده، فإنكارهم لله ليس إلاّ جُحوداً، وحالهم في هذا حالُ المشركين الذين إذا قيل لهم: «مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللهُ».

(لقمان، 25/31)

المُرِيد : بعضُ المرضى قصدوا القبورَ للاستشفاء بوسيلتها فشُفوا، وهذا أمرٌ منقولٌ على لسان أوثق الرّجال المُوقّرين، كما هو واقعٌ نراه كثيراً؛ فما قولك؟

بايندر : هذا الموضوعُ لا يحتاج إلى قولٍ يُقال؛ لأنّ الآياتِ التي ذكرناها كافيةٌ في بيان بطلان هذا الرّعم.

المُرِيد : قال أحدُ الشُّيوخ الكبار من أصحاب الطُّرق الصُّوفيّة في مجلس عيد: "كانت لي أختٌ مُقعّدة، ذهبنا بها إلى كلّ الأطبّاء الموجودين في مدينة "أدنا"¹⁰ في ذلك الزمان فعجزوا عن مداواتها، ثمّ أوصى البعض بأن نذهب بها إلى جبال طُوروس فيها ضريحٌ مشهورٌ، و بأن نبيت هناك

¹⁰ مدينة في تركيا

ونتوسلَ بذلك الصَّريح في الدُّعاء، وبأن نَسْتَمِدَّ من رُوحانيَّته لِنُشْفَى أُخْتُنَا
 بإذن الله، وكُنَّا قد يئسنا من كلِّ الأطبَّاء الذين ذَهَبْنَا إليهم، ففعلنا ما
 أوصينا به من الذَّهاب إلى هناك، وبينما نحنُ نيامٌ في اللَّيْلِ إذا بأختي
 تصرخُ بصوتٍ عالٍ، فارتعشتُ أُمِّي مُتَسَائِلَةً ما الذي حَدَثَ لها، أُصِيبَتْ
 بسوءٍ في عقلها؟ أم هو شيءٌ من الخوفِ شَعَرَتْ به؟ أم ماذا؟ وأختي ما
 تزالُ تصرخُ وتقول: "لقد شُفِيتُ، إنِّي أمشي"، وكُنَّا نَقْفُ وننظرُ لها في
 دهشةٍ وتعجُّبٍ، ولم ننتظرُ فَلَقَ الصُّبحُ فرجعنا من الجبلِ مع أختنا وهي
 تمشي على قدميها"¹¹. إنَّ كلامَ هذا الرَّجلِ المُبجَّلِ وتجربته أمرٌ له شأنه
 عندنا. فما قولُك؟

بايندر : الذين يعتقدون أنَّ أهلَ القبور ينفعون الأحياء في قضاء حاجاتهم
 هم الذين يُصدِّقون مثلَ هذا الرَّعم، لكنَّ هذا كَذِبٌ مَحْضٌ. ألم يُخبرنا النَّبِيُّ
 صلى الله عليه وسلم عن انقطاع عمل الإنسان بعد موته قائلاً: "إذا مات
 الإنسانُ انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ
 يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له"¹². والصدقةُ الجارية كالمسجد والعين
 والجسر ممَّا ينتفع به النَّاسُ يَدُومُ ثوابه ويصلُ إلى فاعله ما دام مُستمرَّ
 النَّفعِ، وكذا العلمُ النَّافع، فإذا أنجزَ إنسانٌ ما عملاً علمياً مُفيداً فثوابه
 يصلُ إليه، ومثله كذلك دُعاءُ الولدِ الصَّالحِ، فكلُّ هذه الأعمالِ يستمرُّ
 ثوابها حتَّى بعدَ الموت، ولا يبقى للإنسانِ أيُّ عملٍ بعد وفاته إلا تلك
 الثلاثة.

وفيما حكَيْتموه عبارةً: "ونتوسلَ بدعائه ونَسْتَمِدُّ من رُوحانيَّته لِنُشْفَى بإذن
 الله"، لكننا نعرفُ أنَّ استعانةَ الأحياء بالأموال لا حقيقةً له، ولو كان
 الأمرُ كما ذكرتُ لذهبنا بكلِّ مريضٍ إلى قبرِ رسولِ الله صلى الله عليه
 وسلم، إذ أنَّ الاستعانةَ به و برُوحانيَّته أعظمُ وأكبرُ !
 إنَّ عليكم أن تُفكروا قليلاً وتعقلوا، أبعدَ اليأس من كلِّ الوسائلِ الطَّبيَّةِ

¹¹ مجلس عيد، مجلَّة ألتن أولوك شباط 1997، ص 13

¹² مسلم، الوصية 14؛ أبو داود، الوصايا 14؛ النسائي، الوصايا 8

نذهب إلى قبرٍ لنستشفي به؟ أيقدرُ الأمواتُ على فعل ما لم يقدر عليه الأحياء؟ أيقبلُ هذا عقلٌ سليمٌ؟ الله تعالى يقول: « وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » (فاطر، 22/35).

وما أسوأ أن يملأ الإنسانُ عقولَ النَّاسِ بالأفكار الخبيثة التي لا أصلَ لها، فهو لا يُحقِّقُ شيئاً سوى أَنَّهُ رأى تلك الأوهام حقيقةً فزَيَّنَها في أعين النَّاسِ فأجْلَوْها ليعظَمَ شأنُ مَنْ زَيَّنَها لهم من شياطين الإنس.

المريد : إنِّي أعتقدُ من صميم قلبي بصحة كلِّ ما ذكرته لك منقولاً عن ذلك الشيخ، فهل تزعمُ أن ذلك الأمر لم يحدث؟

بايندر : لم أزعُمُ ولكنني على يقينٍ أن ما رويته لي مخالفتُ لكلام الله تعالى، فأما المريضُ المذكورُ في الحكاية فلعلَّه شفي حقاً، وأما أن يكون صاحبُ الصَّريحِ وسيلةً للشفاء فهذا ما لا يمكنُ قبوله أبداً. وما ذكرته في الحكاية ليس الأوَّلُ ولن يكون الأخير من الخرافات التي تخدعُ جهلاء المسلمين.

الأصلُ أننا نعبُرُ الصِّراطَ المستقيم في الدنيا أولاً، فإذا أخطأنا في التأويل زَلَّت بنا الأقدام، وما نحنُ نرى أتباعَ الطريقة القادرية يَغْرِزون السِّفَافيدَ "أعوود من حديد" في أبدانهم فيحسبُ بعضُ النَّاسِ ذلك كراماتٍ خُصَّ بها أولئك، وكذا الهنود فهم معروفون بإنفاذ السُّيوف في أجسادهم، ويغريزون في حُدودهم قِصَباتٍ سُمكها كخشب المطارق حتى تتفدَّ من الشِقِّ الآخر، فلو كانَ صنيعُ القادرية كراماتٍ لوجب أن يُنسب إلى هؤلاء الهنود فعلُ المعجزات !

الحقيقةُ أَنَّهُ لا علاقةَ لأحدٍ من الفريقين بالدين، بل يجبُ تنزيهُ الدين عن مثل هذه الأفعال، وإنَّ ما يفعلونه هو من قبيل التَّنويم المغناطيسي، فبعضُ العمليَّات الجراحية تُجرى بهذا التَّنويم دون اللُّجوء إلى التَّخدير، فلا يشعرُ المريضُ بأيِّ ألمٍ.

قد تُشاهدُ في التِّلْفَاز تصويرَ العمليَّةِ الجارية في دماغٍ مفتوحٍ فيسألُ

المريض أثناء العملية عمًا إذا كان يشعر بشيءٍ من الوجع؟ فيجيب بأنه لا يشعر إلا بدغدغة خفيفة فقط !

3. التوسُّل والوسيلة :

التوسُّل اتخاذُ شيءٍ ما وسيلةً وواسطةً، والوسيلةُ والواسطةُ هي ما يُقَرَّبُ شيئاً من آخر، وفي بعض الطُّرُق الصُّوفِيَّة يُتَّخَذُ الوَلِيُّ والشَّيْخُ وسيلةً أو واسطةً بين الله تعالى وبين عباده أثناء الدُّعاء، فيُستمدُّ من روحانيَّتهما، والوليُّ عندهم هو مَنْ يجعلونه ولياً لله !

الشَّيْخُ محمود أفندي : أنت لا تقبلُ الوسيلةَ بهذا المعنى، لكننا نملكُ من الأدلَّة ما يكفي على جوازها، فقد جاءَ رجلٌ أعمى إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم مُلتَمِساً منه الدُّعاء، فقال له: "توضَّأ وصلِّ ركعتين، وقل: يا ربِّ إني أتوسَّلُ إليك برسولِكَ لتشفيني". فدعا الرَّجُلُ قائلاً أيضاً: "يا ربِّ شفِّعْ فيَّ نبيِّكَ". هذا الحديثُ صحيحٌ، فإن لم تقبله لم نقبلك نحنُ أيضاً. **بايندر :** هذا الحديثُ مذكورٌ في سنن التِّرْمِذِي وابن ماجه ومُسند أحمد وهو كالتَّالي:

عن عثمان بن حنيفٍ أنَّ رجلاً ضريراً البصر أتى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فقال له: "إدعُ الله أن يُعافيني، قال: إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرت فهو خيرٌ لك. قال: فادعُه، قال: فأمره أن يتوضَّأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدُّعاء: "اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجَّهُ إليك بنبيِّكَ مُحَمَّدٍ نبيِّ الرَّحمة، إني توجَّهْتُ بك إلى ربِّي في حاجتي لنقضى لي، اللَّهُمَّ فشفِّعه فيَّ"¹³. أمَّا هذا الرَّجُلُ فقد سأل الدُّعاءَ لنفسه، والمؤمنُ يدعو لأخيه المؤمن، وفي هذا الموضع كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قد وعدَه بالدُّعاء له، وأمره أن يدعو لنفسه بنفسه بقوله: "اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوجَّهُ

¹³ التِّرْمِذِي، الدُّعوات 119، حديث 3578 ثم قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر وهو الخَطْمِي ؛ ابنُ ماجه، صلاة الحاجة 189، رقم الحديث 1385 ؛ مُسند أحمد 4/138.

إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ". وَأَمَّا حَرْفُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ بِنَبِيِّكَ فَلَعَلَّهُ يُفَسِّرُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ الصَّحِيحِ، وَمَهْمَا يَكُنْ، فَهُوَ يُعِيدُ الْإِلِصَاقَ هُنَا، أَيْ جَعَلَ شَيْءٍ جُزْءًا مِنْ شَيْءٍ آخَرَ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ لِلْحَدِيثِ كَالْتَّالِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِينُ بِكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ مَعَ نَبِيِّكَ، وَلَا يُمَكِّنُ قَبُولَ مَعْنَى غَيْرِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ مُخَالَفًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خُطَابِهِ لِنَبِيِّهِ: "قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" (الأعراف، 188/7).

الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ أَفْنَدِي : فَمَا قَوْلُكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي هِيَ دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّوَسُّلِ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (النِّسَاء، 64/4) ؟
فَقَدْ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ، فَكَانَ كَذَلِكَ يَفْعَلُ، وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ مَعَ الْأَوْلِيَاءِ، لِأَنَّ الْأَوْلِيَاءَ وَرَثَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ بِأَنْ يَفْعَلُوا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَايَنْدِر : تَعَلَّمُ أَنَّ التَّوْبَةَ هِيَ الْعُودَةُ وَالرُّجُوعُ، وَأَنَّ الْاسْتِغْفَارَ هُوَ طَلِبُ الْمَغْفِرَةِ، وَالتَّوْبَةُ تَقْتَضِي نَدَمَ الْمَرْءِ عَلَى مَا اقْتَرَفَهُ مِنْ ذُنُوبٍ، وَعَقْدَهُ الْعِزَمَ عَلَى عَدَمِ الرُّجُوعِ إِلَيْهَا أَبَدًا، فَلَيْسَ عِنْدَنَا إِذَا الاعْتِرَافُ بِالذُّنُوبِ لِرِجَالِ الدِّينِ كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ النَّصَارَى، فَالتَّوْبَةُ لَا يُشْتَرَطُ لَهَا شَيْخٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ لِعَقْدِهَا.

وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي قَرَأْتَهَا إِنَّمَا هِيَ فِي التَّوْبَةِ وَالْاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا أَخْطَؤُوا فَعَصَوْا اللَّهَ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَفَعَلَهُمْ هَذَا يَقْتَضِي ضِدُورَ النَّدَمِ مِنْهُمْ، وَهُوَ التَّوْبَةُ، وَ طَلِبُهُمْ صُفْحَ اللَّهِ عَنْهُمْ هُوَ الْاسْتِغْفَارُ، وَطَلِبُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَفْوَ مِنَ اللَّهِ هُوَ اسْتِغْفَارُهُ لَهُمْ، وَمَا أَجْمَلَ الْفُورَ بِدَعَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فَلَيْسَ هَذَا مَقَامَ التَّوَسُّلِ.

وَكثِيرٌ مِنَ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ وَقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ، وَهَذَا نَوْرٌ مِنَ الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا بِتَمَامِهَا «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ

وَوَ أُنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (النساء، 64/4).

الشَّيْخُ مُحَمَّدُ أَفندي : أمَّا أنتم فقولوا ما شئتم أن تقولوا، وأمَّا نحن فنؤمنُ باتخاذ أرواح الأولياء الكرام والشيوخ العظام¹⁴ وَسَطَاءَ بين الله تعالى وبين عباده، فنستعين¹⁵ بهم ونستمدُّ من روحانيَّتهم.

بايندر : فأين أنتم من قول الله تعالى: « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »؟ أي لا استعانة إلا بك يا الله، ونحن نقرُّ هذه الآية كلَّ يومٍ مرَّاتٍ كثيرة. وقال الله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق، 16/50).

فإذا كانَ اللهُ تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، فأَيُّ موضعٍ بقي لهؤلاء الشيوخ العظام ليُقيموا فيه أنفسهم فيقفوا بين الله تعالى وبين عباده؟ ! الشَّيْخُ أَفندي : جاءتني طالبتان من كليَّة الإلهيات تسألانني السؤالَ نفسه، قالتا: إذا كان اللهُ أقرب إلينا من حبل الوريد، فما للشيوخ في الأمر؟ فقلتُ لهما: هل تقرأن القرآن الكريم؟ قالتا: نعم، قلتُ: مَنْ يُرَوِّكُما؟ قالتا: مُعَلِّمُ القرآن، فقلتُ لهما: أليس اللهُ أقرب إليكما من مُعَلِّمِ القرآن؟ فلمَ احتجتما إلى غير الله لتتعلمَا القرآن؟ قالتا: نعم، أنت على حقِّ.

بايندر : لكن ما العلاقة بين اتخاذ الإنسان مُعَلِّمًا يُعَلِّمُهُ القرآن وبين اتخاذه واسطةً بين الله تعالى وعباده في الدُّعاء؟ أين التوسُّل في اتخاذ مُعَلِّمٍ للقرآن؟ هل كلُّ مَنْ كان مُعَلِّمًا للقرآن يجبُ وفق زعمكم أن يكون واسطةً بين الله تعالى وعباده؟ ! الحمدُ لله الذي وَهَبَ لي عقلاً أفهمُ به ديني.

¹⁴المقصود بالشيوخ هنا شيوخُ الطُّرق وليس شيوخُ العلم.

¹⁵يعنون بالاستعانة والاستمداد طلبُ العون كما يفهم هذا أيُّ عارفٍ باللُّغة العربيَّة، فهم

يستعينون بالأولياء الموتى ويُنْخِذونهم وسطاءً بينهم وبين الله تعالى، ولمعرفة

ضلالات هؤلاء لينظرُ إلى كتاب "روح الفرقان" 82/2 حيث تمرُّ هذه المقالةُ بشكلٍ أوضح.

4. كلُّ مسلمٍ وليُّ الله :

الشَّيخُ أفندي : نحنُ نتحدَّثُ عن الأولياء، وليس عن كلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، ولا يُمكنُ لكلِّ النَّاسِ أن يكونوا أولياءً ومُقرَّبين إلى الله تعالى.

بايندر : فَمَنْ هو وليُّ الله إذا ؟

الشَّيخُ أفندي : سأشرحُ لك ذلك فاستمع :

على الوليِّ في بداية سلوكه الطَّريقَ إلى الله أن يُزيحَ كلَّ دخيلٍ بينه وبين الله، وأن يرفعَ مستوى علمه بالله ليكونَ عارفاً به.

وإذا أنعمَ اللهُ تعالى على السَّالِك¹⁶ فأخرجَ كلَّ شيءٍ من قلبه إلا الله، فلم يَرِ غيرَ الله، هناك يحصلُ له الفناء في الله، يفني نفسه في الله، وهذا هو هدفُ الطُّرقِ الصُّوفيَّةِ، وهكذا يكونُ قد أكملَ السَّيرَ إلى الله، أي السَّيرَ المعنويَّ إلى الله تعالى.

ثمَّ بعد ذلك يدخلُ في مقام السَّيرِ في الله، ولا يكونُ في القلب إلا اللهُ جلَّ جلاله، وهذا السَّيرُ يمرُّ بعدةِ مقاماتٍ فالذي يكسب هذه المقامات لا بُدَّ وأن يكونَ ولياً من أولياء الله.

وهنا يتحوَّلُ من النَّفسِ الأمارَةِ بالسُّوءِ إلى النَّفسِ المُطمئنَّةِ، فيعرضُ عن الكفر والإنكار، ويرضى عن الله ويرضى اللهُ عنه، ويرتفع عن طبيعة النَّفسِ الأمارَةِ بالسُّوءِ ممَّا يكونُ فيها من النُّفُورِ من العبادات¹⁷.

بايندر : تتحدَّثُ عن الفناء في الله، والسَّيرِ في الله، والسَّيرِ إلى الله، وتُبيِّنُ أنَّها مراتبٌ عاليةٌ، فهل يوجدُ لها دليلٌ من القرآن والسُّنَّةِ؟ وهل ذُكِرَ مثلُ هذا في عصر السَّعادة؛ عصر النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم؟¹⁸

وكيف تُفسِّرون أن يكونَ للسَّيرِ المعنويِّ نهايةً أو حدٌّ في الدُّنيا؟ ومهما يكنُ فأنا لا أريدُ أن نتحدَّثَ عن هذا الموضوع الآن، فإذا قدَّرَ اللهُ تعالى وقتاً مناسباً في المرَّةِ القادمة فيمكننا أن نتحدَّثَ فيه إن شاء اللهُ.

¹⁶السَّالِكُ هو الذي يسلكُ أي يدخلُ في الطَّريقَةِ الصُّوفيَّةِ ليُدْرِبَ نفسه عليها.

¹⁷روح الفرقان، ج 2/ص 67.

¹⁸يطلقُ عصرُ السَّعادة على عصر النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم.

والله تعالى أعلم بمن كان له ولياً، وهو عز وجل الذي قال: «أَلَا إِنَّ
أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»
(يونس، 62/10-63). فأولياء الله هم المؤمنون المتقون.

وفي بداية سورة البقرة بين الله تعالى المتقين، وهم «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (البقرة، 2/3-4). فهكذا
عرفهم الله لنا، فما لكم تأتوننا بتعريف آخر؟!

والولي - ولي الله صدقاً - يقابله عدو الله، وكل المؤمنين أولياء الله،
ولكن من الناس من يتخذ الشيطان ولياً، كما أخبر الله تعالى بقوله: «وَمَنْ
يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا» (النساء،
119/4).

والولاية متبادلة، فالمؤمنون أولياء الله، والله ولي المؤمنين، والشيطان ولي
الذين اتخذوه ولياً من دون الله، قال الله تعالى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا
يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ
يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
« (البقرة، 2/257). «تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَّ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (النحل، 63/16).
« يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ
عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا
تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» (الأعراف، 27/7).
« فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ » (الأعراف، 30/7).

كما بين الله تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فقال: «لَا يَتَّخِذِ
الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ
اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ» (آل عمران، 28/3). والآيات كثيرة في هذا الموضوع.

والولاية ذات درجات، فمن الناس من يعمل كل ما في وسعه ليكون عبداً لله حقاً فيُسَخَّرَ ماله ونفسه وكل ما يملك في سبيل الله، فظاهر أن من كانت هذه حاله كانت ولايته أزيد ممن كانت حاله دون ذلك. « وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنِ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » (فاطر، 32-31/35).

فالأذنين وصلوا إلى هذه الدرجة يشعرون دائماً بالسعادة والابتهاج لأن الله معهم، فلا تعظم في أعينهم المصائب، ويعلمون أن ما أصابهم قدر مقدور، فيداومون على طريقهم مُعْتَمِدِينَ على الله تعالى، فآثار المصائب لا ترى إلا على ظواهرهم ولا تكون في بواطنهم.

5. إغاثة الأولياء

الشيخ أفندي : يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني في بعض أشعاره:
مُرِيدِي إِذَا مَا كَانَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
أُغِيثُهُ إِذَا مَا صَارَ فِي أَيِّ بَلَدَةٍ¹⁹
بايندر: هذا يناقض كثيراً من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ » (النمل، 62/27).
فإذا ظهرت للمرء حاجة ففضاها بسؤاله غير الله سبحانه وتعالى، فكيف له أن يشعر بوجوب التجائه إلى الله سبحانه وتعالى وقد قضى حاجته بدون أن يحتاج إلى الله؟
الشيخ أفندي : إذا لم تؤمن بعبد القادر الجيلاني فقد انتهى الحديث بيننا وبينك.

¹⁹ يمرُّ هذا البيت من الشعر في كتاب (سكة تصديق الغيب) لسعيد التورسي. انظر

مجموعة رسائل التور، اسطنبول 1995، 2083/2

بايندر : لم أجد الإيمان بعبد القادر الجيلاني من شروط الإيمان في الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنني وجدت أن من شروطه الإيمان بما في القرآن الكريم والعمل به.

أنا أرى أن أكثر ما يُذكر عن هؤلاء الشيوخ غير صحيح، والشعر المذكور أنفاً نَعُدُّه من هذا القسم، فإذا كان قد اختلق الكذب بالآلاف من الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف لا يُكذَّب على عبد القادر الجيلاني أو جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني؟! !

ولكن لو جاءنا عبد القادر الجيلاني وذكر لنا هذا الشعر لم نُسلم له به معتذرين بقلّة علمنا إلى جانب علمه، بل نردّه عليه غير مُتردّين في ذلك لأننا سنحاسب يوم القيامة بناءً على ما أمَرنا الله تعالى بالقرآن الكريم وليس على ما قاله عبد القادر الجيلاني.

6. مدد الشيخ :

هناك زعمٌ في الطرق الصوفيّة أن الشيخ قادرٌ على إعانة مُريديه بوسائل خارقة للعادة وعلى إخراجهم من الضيق الذي قد يقعون فيه.

المريد : و مددُ الشيخ أيضاً تردُّه ولا تُؤمنُ به؟! !

أمّا أنا فأعمالي كُلّها على غاية ما يُرام بفضل مددِ شيخي، هذا ما أراه وأعيشُه.

بايندر : حين تذكرون همّة الشيخ فإنكم لا تقصدون علاقةً خاصّةً بينكم وبينه، أنتم تقصدون عوناً معنوياً. أليس هذا ما تعنون؟

المريد : بلى. ولنأتِ بمثلي: حين كنتُ في الحجّ وكان شيخي في تركيا رأيتُ مددَه في نزولي من عرفات، فما أسهل ما كان النزول! حتّى إنني وصلتُ إلى الفندق باكراً الساعة الثامنة صباحاً بعد رمي الجمرات.

بايندر : لماذا لا تقولون أن هذا العون من الله تعالى، ولماذا تُصرون على القول أنه من "مدد الشيخ"؟

المريد : الله تعالى يُعين المريدين لما لشيخهم عند الله من المنزلة العالية،

لذا نقول أنه من الشيخ.

بايندر: الجواب نفسه يتكرّر على لسانك !

إذا فممن أخذ المدد أولئك الذين جاؤوا قبل الساعة الثامنة إلى الفندق؟ !
لقد ذكرت كثيراً من الآيات التي تُخالف قولك، ولكن لنفكر قليلاً ونحن نقرأ
قوله تعالى: « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ
عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ
أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا »
(الإسراء، 17/56-57).

أنتم تؤمنون بشفاة شيوخكم يوم القيامة، فإذا كان الشيوخ قادرين على
إنقاذ مريديهم في الدنيا والآخرة فلا شك أن أعظم ما على المريد فعله هو
نيل رضا شيخه والسعي وراء ما يقربه إليه، فلا يبقى إذا معنى للتضرع
إلى الله تعالى؟!
طريقكم هذا باطل، وأسأل الله العليّ الكبير أن يُيسر لكم التوبة وإلا فإن
عاقبتكم الخسارة.

7. التوسّل بجرمة الشفعاء في الدعاء :

المريد : ألا نتوسّل بجرمة كبار الشيوخ في دعائنا حتى يستجيب الله لنا؟
أفلا ندعو بهذا الدعاء: " يا رب استجب دعائي بحق محمد، أو بجرمة
الأولياء الكرام والشهداء والصالحين "؟
بايندر : هناك من يفعل هذا في دعائه، وفي بعض الكتب ك "مولد
سليمان شلبي" يوجد مثل هذا الدعاء، لكنّه باطل غير جائز. يقول ابن
أبي العزّ الحنفي في هذا الأمر: " ولا يجوز الحلف بغير الله...، ولا أن
يسأل بسببه ولا أن يتوسّل به... فكأن يقول لكون فلان من عبادك
الصالحين أجب دعائي! ولا علاقة لهذا بالدعاء. وإنما هو من الاعتداء
في الدعاء، وقد قال تعالى: « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ » (الأعراف، 55/7). وهذا ونحوه من الأدعية المُبتدعة، ولم

يُنْقَلُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَنِ الصَّحَابَةِ وَلَا عَنِ التَّابِعِينَ،
وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْمَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا يَوْجَدُ مِثْلُ هَذَا فِي الْحُرُوزِ
وَالِهَيْكَلِ الَّتِي يَكْتُبُهَا الْجَهَّالُ وَأَصْحَابُ الطَّرْقِ الصُّوفِيَّةِ".²⁰

8. الإعانة بخوارق العادة :

المُرِيد : أَلَا يَسْتَعِينُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ؟ فَكَيْفَ لَا يُسْتَعَانُ بِغَيْرِ اللَّهِ
إِذَا؟ !

بايندر : يَوْجَدُ الْعَدِيدُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي تَحْتُّ عَلَى التَّعَاوُنِ
وَالْتَّنَاصُرِ بَيْنَ النَّاسِ، لَكِنَّ الْكُلَّ يَعْلَمُ أَنَّ طَلَبَ الْمَعُونَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ يَخْتَلِفُ
عَمَّا يَجْرِي بَيْنَ النَّاسِ مِنَ التَّعَاوُنِ، فَبَعْضُ النَّاسِ يَسْتَعِينُونَ بِالْأَمْوَاتِ فِي
الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ عَاجِزِينَ فِيهَا، فَيَدْعُونَهُمْ لِدَفْعِ ضَرَرٍ أَوْ جَلْبِ
مَصْلَحَةٍ مُتَّخِذِينَ الْوَسَائِلَ الْمَتَعَارِفَةَ لِلنُّصْرَةِ بَيْنَهُمْ.

عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: فِي حَيِّ "تَوْزَلَا" مِنْ مَدِينَةِ اسْطَنْبُولِ، تَعَرَّضَ بَعْضُ
النَّاسِ لِسَبِيلِ جَارِفٍ وَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ فِي سَيَّارَاتِهِمْ، فَدَعَا أَحَدُهُمْ حَمْزَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِلًا: " يَا سَيِّدَنَا حَمْزَةَ " نَسْتَعِينُ بِكَ.²¹ وَلَوْ أَنَّ هَذَا الدَّاعِيَ
سَأَلَ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْبَصِيرَ الْخَبِيرَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ لَكَانَ قَدْ أَحْسَنَ
الصَّنْعَ وَلَكِنَّهُ يَسْأَلُ حَمْزَةَ الَّذِي يَرْقُدُ فِي قَبْرِهِ بَعِيداً عَنِ اسْطَنْبُولِ آلَافِ
الْأَمْيَالِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِأَنَّ حَمْزَةَ قَادِرٌ عَلَى سَمَاعِ دَعَائِهِ وَالْمَجِيءِ
إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ وَإِغَائِثَتِهِ عَلَى الْفُورِ، فَهَذَا الدَّاعِيَ يَزْعُمُ أَنَّ فِي حَمْزَةَ بَعْضَ
الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ صِفَاتِ الْبَشَرِ، مِنْهَا الْحَيَاةُ وَالْعِلْمُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ
وَالْإِرَادَةُ وَالْقُدْرَةُ، فَهُوَ اسْتَعَانَ بِحَمْزَةَ لِأَنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ مَا زَالَ حَيًّا !
المُرِيد : لَكِنَّ الشُّهَدَاءَ لَا يَمُوتُونَ.

بايندر : صَحِيحٌ أَنَّ الشُّهَدَاءَ لَيْسُوا بِمَيِّتِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ

²⁰ علي بن محمد بن أبي العز اليمشي (792هـ/1390م)، العقيدة الطحاوية، بيروت

1408هـ/1988م، 1/295-297

²¹ كوجوك دونيام -2، جريدة الزمان، 1996/11/28

يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» (البقرة،

154/2). لكنَّ حياتهم تلك ليست ممَّا نشعرُ به، ولو كنَّا نستطيع الشُّعورَ بها لما تأسَّفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على عمِّه حمزة الذي مات شهيداً كلَّ ذلك الأسفَ، ولو كان حمزة يُجيب المنادي لجاؤه أحياناً ولسأله قضاءً بعض الحاجات.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه : "ما رأينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم باكياً قطُّ أشدَّ من بكائه على حمزة بنِ عبدِ المُطَّلِب، وضَّعه في القِيلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَّع من البكاء"، والنشع الشَّهيق.²² وبعد أن أسلم وحشيَّ دَهَبَ إلى المدينة ليرى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، قال: "فلمَّا رأني قال: أأنْت وحشيُّ؟ قلتُ: نعم. قال: أنت قتلتَ حمزة؟ قلتُ: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: فهل تستطيعُ أن تُعَيِّب وجهك عني؟ قال: فخرجتُ".²³

وسنعودُ إلى موضوع الشُّهداء فيما بعد.

وحين تُؤفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تكلمَ أبو بكر رضي الله عنه بكلامٍ حسنٍ يذكره ابنُ عباس رضي الله عنهما فيقول: "فقال أبو بكر: أمَّا بعدُ؛ مَنْ كان منكم يعبدُ محمداً صلى الله عليه وسلم فإنَّ محمداً قد مات، ومَنْ كان منكم يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، وقرأ قوله تعالى: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » (آل عمران، 144/3). وقال: والله لكأنَّ النَّاسَ لم يعلموا أنَّ الله أنزلَ هذه الآيةَ حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه النَّاسُ كلُّهم، فما أسمعُ بشراً من النَّاسِ إلَّا يتلوها، فأخبرني سعيدُ بنُ المسيَّب أنَّ عمر قال: والله ما هو إلَّا أن سمعتُ أبا بكرٍ تلاها فعقرت ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمتُ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قد

²² الرَّحِيقُ الْمُخْتَوِّمُ لصفِي الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكْفُورِي 255-256، بيروت 1408هـ/1988م

²³ البخاري، المغازي 23

وقال تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً: « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » (الأنبياء، 34/21). « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » (الزمر، 30/39).

فبعد النظر إلى ما تقدّم من الآيات والأحاديث؛ من ذا الذي يستطيع أن يدعي في حمزة رضي الله عنه حياة نستطيع أن نشعر بها؟ والله تعالى يقول: « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » (النحل، 16/19-21).

وما أكثر الذين يستعملون كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لأغراضهم السيئة! فهؤلاء يفترون على الله الكذب لتدوم لهم السيطرة على الناس، وهم يضلّونهم بزعمهم أنّ رسول الله حيّ وأنّ لهم معه لقاءاتٍ رغم كثير من الآيات التي تُفند كلامهم ولكنهم يتجاهلوننا لتحقيق مزاعمهم الباطلة، حتّى إنّ منهم من يدعي أنّ رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم نقيب المقتشين الذين يراقبون الشيوخ ومن حولهم من الأتباع، ويحفظونهم من السوء. فماذا يُنتظر إذا ممّن يستعين بروحانية الشيوخ، أو يزعم أنّ الولي تخرج روحه عند الموت كالسيف المسلول من غمده؟

إنّ أمثال هؤلاء من ذوي الحرص والطمع في تحقيق مزاعمهم الباطلة يصعب أن يهتدي، ولكنني أودّ أن أنقل هذه العبارة عن عمر رضي الله عنه حتّى يستفيد من كان له عقل سليم أو ألقى السمع وهو شهيد: "... كنتُ أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى يدبرنا -يريد بذلك أن يكون آخزهم- فإن يك محمدٌ صلى الله عليه وسلم قد مات فإنّ الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدَى الله محمداً صلى الله عليه وسلم".²⁵ هذا النور هو القرآن الكريم. وقد ذكّر النبي صلى الله

²⁴البخاري، المغازي 83

²⁵البخاري، الأحكام 51

عليه وسلم هذا الموضوع في خطبة الوداع بقوله: " تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله".²⁶ « فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ » (يونس، 32/10).

والشخص الذي ذكرناه سابقاً تخيَّل في حمزة رضي الله عنه الصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ وهي العلم؛ والعلم هو المعرفة والتصوُّر، وفي الإنسان صفة العلم، ولكنَّ علمه محدودٌ ومشروطٌ بشروط، كما أنَّ للإنسان صفة النسيان فقد ينسى ما تعلَّم على مرِّ الزَّمن، وعلمُ الله لا نهايةَ له، وهو يعلمُ كلَّ شيءٍ بأدقِّ جزئياته، وعلى أكمل وجه، ولا ينسى أبداً.

وعلى هذا فمن الصَّروحي أن يعرف حمزة أسطنبول بالرَّغم من أنه لم يأتها ولم يرها قط، و"توزلا" مدينةٌ صغيرةٌ قريبةٌ من اسطنبول على طريق أنقرة وقد حدَّث فيها فيضانات، وقد دعا المُستغيثُ حمزة ليحضرَ وينقذه من أن يموتَ في الفيضانات، طبعاً هو لن يقولَ أنَّ علمَ حمزة كعلم الله من حيث تعلُّقاته بالمعلومات، ولكنَّه أشركَ حمزة في بعض الصِّفات الخاصَّة بالله تعالى وهي صفة العلم.

والصِّفَةُ الثَّالِثَةُ هي السَّمْع، وقد خَلَقَ اللهُ تعالى للإنسان السَّمْع، لكنَّه محدودٌ بالمكان وبدرجة دَبْدَبَةِ الصَّوْت، فكيف بمن يرقُد في قبره كحمزة؟ واللهُ تعالى الذي أسمع كل شيء يُخاطبُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم فيقول له «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (فاطر، 22/35). وهو الذي يعلمُ أخصَّ الأصوات والحركات والتضرُّعات، وهو السَّمِيع، ألا يكونُ هذا الرَّجُلُ قد جَعَلَ حمزة رضي الله عنه شريكاً لله في صفة السَّمْع حين دعاه من اسطنبول ظنّاً منه أنَّه يسمعُ نداءه؟ ذلك لأنَّ السَّمْعَ في هذه الحالة لا يكونُ إلاَّ اللهُ تعالى.

والصِّفَةُ الرَّابِعَةُ هي البصر، وللإنسان قدرُ البصر، لكنَّها محدودةٌ، واللهُ تعالى بصيرٌ بكلِّ شيءٍ لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ ولا أصغرَ منها ولا أكبر، والذي يدعو إنساناً بعيداً عنه آلاف الأميال راقداً في قبره يكونُ قد زعمَ أنه

²⁶مسلم، الحج، باب 19، رقم الحديث 147-1218

يراه من بعيد، وإلا فكيف سيستطيع أن ينقذه؟
 والإبصار على هذا النحو لا يكون إلا لله تعالى، لكن هذا الرجل قد جعل
 حمزة شريكاً لله تعالى في هذه الصفة أيضاً.
 والصفة الخامسة هي الإرادة، والسادسة هي القدرة، وإرادة الإنسان وقدرته
 محدودتان، ولن يبقى شيء من هاتين الصفتين بعد الموت، والإرادة والقدرة
 بهذا المعنى لا تكونان إلا لله تعالى، فيكون هذا الرجل قد جعل حمزة
 شريكاً لله تعالى فيهما.

يقول الله تعالى: « أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلُقُونَ. وَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ. وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا
 يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَلَهُمْ
 أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ
 لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظَرُونَ. إِنَّ
 وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ » (الأعراف، 191/7-
 197). وقال تعالى: « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا
 سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » (مريم، 81/19-82).

إذا فإن نسبة ما اختص الله تعالى به نفسه من الصفات إلى غيره من
 المخلوقات ثم جعله وسيطاً بين الإنسان وبين الله تعالى هو شرك لا
 يُعْتَقَرُ. قال الله تعالى: « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا
 يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ » (الأحقاف،
 5/46).

المُرِيد : لكن ألا يمكن لله تعالى أن يمنح لأحد أوليائه صفة من هذه
 الصفات لو شاء؟ أليس الله قادراً على ذلك؟

بايندر : إن الله على كل شيء قدير، ولكن هذا الاستدلال مُخَالِفٌ
 للبدهيّات، فلا يقول به عاقل، وإلا سنقول طبعاً إن الله قادر على أن

يُحَوِّلِكَ إِلَى ضَفْدَعٍ أَوْ خَنْزِيرٍ أَوْ حَيَوَانٍ تَكْرَهُهُ أَنْتَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْعِيَ فِي حَمْزَةٍ قَدْرَةً خَاصَّةً مَعَ وُجُودِ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ أَيْدِينَا؟ !
نَحْنُ كُلُّنَا وَرَسَلُ اللَّهِ مَعَنَا عِبَادُ اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى رَبُّنَا وَمَلِكُنَا، وَلَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ أَمَامَ سَيِّدِهِ شَيْئاً، وَكَذَلِكَ هُمُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَإِنْ كَانُوا رُسُلًا، وَنَحْنُ عَرَفْنَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَمْنَحْ أَحَدًا حَقَّ التَّصَرُّفِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ.

المُرِيدُ : لَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ قَدْ رَأَى حَمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَفْسِهِ فِي مَكَانٍ آخَرَ حِينَ جَاءَ لِعَيْنِهِ، يَقُولُ: «إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ جَانًّا أَمْسَكَ بِيَدِي وَحَاوَلَ أَنْ يَنْطَلِقَ بِي، فَاسْتَأْتُ (تَضَايَقْتُ) مِنْهُ، ثُمَّ إِذَا بِي أَصْرُخُ وَأُنَادِي: يَا حَمْزَةَ! فَأَجَابَ هَذَا الصَّحَابِيُّ ذُو الشَّانِ نِدَائِي وَكَأَنَّهُ مَثَلٌ لِي فَجَاءَهُ فِي الْعُرْفَةِ، فَخَافَهُ الْجَانُّ وَهَرَبَ مِنْهُ غَائِبًا عَنِ الْأَنْظَارِ مِنْ خِلَالِ الْجِدَارِ».²⁷
بايندر : اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُنْجِي مِنَ كُلِّ كَرْبٍ، وَحِينَ كَشَفَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ الشَّخْصِ مُصِيبَتَهُ ظَنَّ أَنَّ حَمْزَةَ هُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ !

الاستعانة بروحانية الأحياء أو الأموات تعني أن يُنسب إليهم ما لم يَحْوِلْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ صِفَةِ الْقُدْرَةِ: « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » (يونس، 66/10).

أ - مصدر القوَّة الخارقة للعادة

المُرِيدُ : الرَّجُلُ الَّذِي نَادَى قَائِلًا: يَا حَمْزَةَ! يَعْلَمُ أَنَّ الْقُوَّةَ لَيْسَتْ لِحَمْزَةَ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ أَنْ يَرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ حَمْزَةَ لِإِمْدَادِهِ، فَأَيْنَ الشَّرِكُ بِاللَّهِ فِي هَذَا؟ !
بايندر : فَلتُدَقِّقْ فِي هَذَا الْقَوْلِ:

1- يقول هذا المُنادي: «يُمْكُنُ الاستعانة بالروحانيين الكبار».²⁸ لكنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُفَرِّجُ الْكُرْبَ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: «قُلْ مَنْ

²⁷ كوجوك دونيام -2، جريدة الزَّمان، 1996/11/28

²⁸ كوجوك دونيام -2، جريدة الزَّمان، 1996/11/28

يُنَجِّيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ
هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيْكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ
تُشْرِكُونَ» (الأنعام، 63/6-64).

2- وماذا يستطيع الخيال أن يُعَيِّرَ من الخِلقة التي خَلَقَ اللهُ تعالى عليها
حمزة رضي الله عنه؟ إنَّ حمزة لا يملك شيئاً ولا يعلم دعاءً داعيه، والآية
المذكورة من سورة الأحقاف تُبَيِّنُ هذا المعنى، وهي قوله تعالى: « وَمَنْ
أَصْلٌ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ
عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ». وقد كان المشركون يتخيلون في آلهتهم قوَّةً يدعون
أنَّ الله قد أعطاهم إياها، وهو زعمٌ لا خطامَ له ولا زمام، وعلينا أن نُفَكِّرَ
في هاتين الآيتين عن المشركين: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ. فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ
الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » (يونس، 31/10-32).

وكان المشركون يقولون حين يطوفون الكعبة "لبيك لا شريك لك إلا شريكاً
هو لك تملكه وما ملك". ينقل ابنُ عباس رضي الله عنهما الخبر فيقول:
"كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، فيقول رسولُ الله صلى الله
عليه وسلم: ويلكم قد قد، فيقولون: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك".
كانوا يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت!²⁹
ويكفي المشركين شركاً أنهم يدعون في الأصنام قدرةً لم يخلقها الله تعالى
فيها، وادعاهم هذا لا يُغيِّرُ من حقيقة الأمر شيئاً. يقول الله تعالى:
«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (الحج، 71/22).
المريد : يقول هذا الداعي بعد دعائه حمزة: "وكأنه مثل لي فجأة في
الغرفة".

²⁹مسلم، الحج، الباب 3، الحديث رقم 1185

ويحكى لنا عن نفسه حادثةً أُخرى فيقول: كانت زوجة صديق لي مريضةً، ولم نجد حيلةً لمداواتها حيثما ذهبنا بها، فحملتُ إليهم مجموعةً من الأدعية فيها أسماءُ أهل بدرٍ، ولم يكن أحدٌ يعلم بذهابي إليهم، وحين كنتُ أصعد سلمَ البيت كانت زوجته ترتجف، وكان الجنُّ يقولون لها: قد جاء الشيخ، ولكننا سنغلبه. وحين طرقتُ البابَ وفتحتُ لي صديقي اندهش كثيراً لرؤيتي، وقدمتُ له مجموعةً الأدعية وقلتُ: لتحملُ زوجتك هذه الأدعيةَ معها، فستجدُ فائدتها ولن يضرها الجنُّ، ثم جُلستُ في غرفة الاستقبال، فحملتُ الأدعيةَ ووضعتها عليها، فسمعناها تصيحُ وتقول: الآن حين حضرَ حمزة فرزئتم؟³⁰ هل كلُّ هذا كذبٌ يا شيخ بايندر؟
بايندر: هو تلبيسٌ من إبليس!

ب - حياةُ الرُوحانيين

المُرِيد : أنا لم أفتتح بعدُ، على ما نعرفُ أن هناك خمسة أنواعٍ من الحياة: الأولى حياتنا الدنيا هذه كما نعيشُ اليوم. والثانية حياةُ الخضر واليابس عليهما السَّلام، وقد يتواجدان في أماكنٍ مختلفةٍ في آنٍ واحدٍ، وإنَّ لهما أن يعيشا حياةً عاديةً كحياةِ أيِّ إنسانٍ يأكلُ ويشربُ. والثالثةُ حياةُ إدريسَ وعيسى عليهما السَّلام، وهي حياةُ نورانيةٍ كحياة الملائكة. والرابعةُ حياةُ الشهداء. والخامسةُ حياةُ أهل بدر. ومَنَحَ اللهُ تعالى الذين قُتِلوا في سبيله حياةً في البرزخ تُشبه الحياةَ الدُّنيويَّةَ، إلاَّ أنَّه لا همَّ فيها ولا غمٍّ، وهم لا يعلمون بموتهم وكأنَّهم انتقلوا من مكانٍ إلى آخرٍ أحسنَ من سابقه يسعدون فيه بحياةٍ أبديةٍ بعد قيام الساعة، وحمزةُ سيِّدُ الشهداء يعيشُ مثلَ هذه الحياة، ويُمكنُ له أن ينصُرَ الذين

³⁰كوجوك دونيام -2، جريدة الزَّمان، 1996/11/28

يستعينون به وينظر في شؤونهم ويأمر بإنجاز مطالبهم³¹.
بايندر : حياة الشهداء حق، ولكن كيف يمكن لنا الادعاء بأننا نحس تلك
الحياة التي قال الله تعالى فيها: «... وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ»؟ وسيأتي فصل
خاص بالشهداء.

والحق أن حمزة رضي الله عنه غير قادر على أن يعين أحداً، وحسبكم
الآيات المذكورة لو أنكم تريدون الحق، أفلا تتدبرون آيات الله أم على
قلوب أقفالها؟! !

المريد : حياتنا هذه معلومة لا خلاف فيها، وموضوع الشهداء فهمناه.
ولكن ماذا تقولون في باقي أنواع الحياة؟

بايندر : أريد أن أطرح سؤالاً؛ ما هو دليلكم على أن الخضر والياس
وإدريس وعيسى عليهم الصلاة والسلام ما زالوا على قيد الحياة إلى يومنا
هذا؟

المريد : هذا ليس افتراءً من عندي؛ بل هو ثابت ومعلوم بالمكاشفات من
قبل الأولياء العظام ووصل إلينا عن طريق النواتر.

بايندر : هذه الأمور لا تعتمد على الكشف؛ فالكشف ليس دليلاً شرعياً ولا
عقلياً، بل هو شطحات يفتتر بها الجهلاء من الناس. وسنقف على هذا
الموضوع فيما بعد إن شاء الله، ولا نعلم عن أحوال الأنبياء الأربعة إلا
حال عيسى بن مريم عليه السلام الذي قال الله عنه: «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا
أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ
فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»

(المائدة، 117/5). فالآية تُخبرنا بوفاته وبعده علمه بما أحدثته أمته من
بعده، فعلينا ألا نفتري على الله بغير علم. وحين كان عيسى حياً قال الله
تعالى له: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ فِي يَمِينِكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ

³¹مكتوبات سعيد النورسي، المکتوب 1، مجموعة رسائل النور 347/1، اسطنبول

إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (آل عمران، 55/3).

ت - الموت والنوم

المُريد : وماذا تقول في حياة القبر؟

بايندر : قال الله تعالى: " وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " (الأنعام، 60/6) وفي هذه الآية يجعل الله تعالى الموت كالنوم تماماً، والقيامة من قام يقوم قياماً.

والحشر بعد الموت يُشبهه القيام من الفراش، والتفخ في الصور يُشبهه المنية في المعسكرات والمخيمات. قال الله تعالى: " وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ " (يس، 51/36-52).

فالموت في القرآن نوم، والقبر مرقد، وليست الحياة بعد الموت إلا كمن يستيقظ من نومه، وعذاب القبر المذكور في الأحاديث الشريفة لا بد أن يكون كالأحلام المفزعة في المنام، والنائم لا يشعر بمدى الوقت الذي مر عليه، وكذا الميت، وقد ضرب الله تعالى مثلاً للنائم والميت في كتابه العزيز كما قال عن أصحاب الكهف الذين ناموا ثلاث مائة سنين وتسع سنوات: " وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۗ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۗ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ " (الكهف، 18/19).

وقال تعالى عن الموت: " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۗ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۗ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۗ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۗ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۗ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۗ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (البقرة، 2/259).

فالذي مات مئة عام ثم قام حياً، والذين مكثوا ثلاث مئة سنين وازدادوا

تسعى ثم قاموا من سباتهم كانوا يظنون أنهم لم يلبثوا إلا يوماً أو أقل من يوم، وما على الذين يريدون فهم حياة القبر إلا أن يعتبروا بتلك الآيات، وكما أن النائم لا علم له بجسده، فكذلك الميت. وجسم النائم يمكث حياً لترجع إليه روحه من جديد، والميت يموت جسمه لأن روحه لا ترجع إليه، ويوم القيامة يحي الله الجسد ويجعله مناسباً لعودة الروح إليه من جديد، فيبدو وكأنه استيقظ من سباته العميق ويدل عليه قوله تعالى: "مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا" (يس، 52/36).

والجسد يتأكل في التراب ويخلق من جديد وصاحبه لا يشعر بذلك، وإنما يظن أنه كان نائماً طوال هذه المدة، فلا يحس بما مضى عليه من زمان ما بين الموت والحشر، كما أن الموت قريباً من النوم، والقيامة كالقيام من النوم، فالنوم ليس انقطاعاً عن الحياة ولكنه استراحة ضرورية ليستعد الإنسان للحياة الأبدية.

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن البعث يكون يوم القيامة كالاتمرار في الحياة الدنيا؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: "يبعث كل عبد على ما مات عليه".³² وجاء في حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بينما رجل واقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة إذ وقع من راحلته فأقصعته أو قال فأقصعته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اغسلوه بماء وسدر وكفونوه في ثوبين ولا تحنطوه، ولا تحمروا رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً".³³

هذا الحديث يدعو إلى التفكير والتدبر، فهو يعد موت هذا الرجل كنوم الحاج المحرم، والمحرّم يستعمل الطيب ولا يُعطى رأسه أثناء النوم، وحين يستيقظ منه يأخذ في التلبية.

المُرِيد : إذا فكيف تُفسر كون القبر روضةً من رياض الجنة أو حفرةً من حفر النار؟

³²مُسلم، الجنة 19 رقم 83 - (2878)

³³البخاري، الجنائز 20

بايندر: هذا في غاية السهولة حيث إن حياة القبر تُشبه الرؤيا في المنام، فالذي يرى رؤية حسنة لا يُريد انقطاعها، أمّا الذي يرى الأحلام المُفرعة فيُسّر بعد استيقاظه بأنّها لم تكن حقاً، والله أعلم.

9. الشّرك الذي تخبّط فيه المسلمون :

المُرید : قد يَقَعُ المُعلِّمون في أخطاء لأنّ الإسلام غاب عن الحُكم منذ سبعين سنة، وتعلمون أنّ الشريعة أُلغيت سنة 1924 ميلادية، واستُمدت كل القوانين من الغرب، ومُنِعَ التّعليمُ الدّينيُّ وبألغَ البعض في منعه بعض الفترات حتّى أصبح الأذان باللّغة التّركيّة.

بايندر : من السهل إلقاء اللوم على الغير! فماذا تقول في ظروف السبعين سنة الماضية؟ هل ظهرت من تلقاء نفسها دون سبب؟ ولماذا انهزم المسلمون في الحرب العالميّة الأولى؟

المُرید : هذه الهزيمة لها أسبابها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعسكريّة وغيرها من الأسباب. فهل تعني أنّ الطّرق الصّوفيّة هي المسؤولة عمّا حدث؟!

بايندر : نعم إنّ الطّرق الصّوفيّة مسؤولة من جهتين، ولا أريد أن نخوض في هذا الموضوع لأنّه موضوع بحث المتخصّصين بالشؤون الاجتماعيّة. ولكن علينا أن نتحدّث عن الأخطاء في تفسير القرآن وكيف غلبت علينا أهواؤنا في فهمه وتفسيره.

وقد أدخلت في تفسير القرآن أقوالاً باطلة لا علاقة لها بالدّين الإسلاميّ، وتكاثرت الأحاديث الموضوعيّة وتلقّاها النّاس بالقبول. ومنها على سبيل المثال قولُ المفتري: "إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور".³⁴ والذي وُضِعَ هذا حديثاً هو ابن الكمال شيخ الإسلام في عهد السلطان سليم ياووز، ولم يكتفِ بوضعه واختلاقه، بل ذهب إلى تصحيحه بتفسيرات باطلة، لهذا السّبب كان الخطبُ على المسلمين جسيماً جدّاً، وقد

³⁴ روح الفرقان، ج 2، ص 67

بيّنًا هذا الموضوعَ تحت عنوان: " الاستعانة بأصحاب القبور ".
وقد ابتعدَ المسلمون عن القرآن منذ عهدٍ طويلةٍ! ومثلما كان التّقيّدسُ
لشيوخ الطّرق الصّوفيّة كان هناك تقديسٌ لأصحاب المذاهب أيضاً،
وأخذتْ أقوالهم أساساً للذين بدلاً عن القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة،
وأصبحَ المسلمون يعدّون كلّ ما هو جديدٍ من الأفكار القيّمة المبنية على
أساس القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة ذنباً من أعظم الذّنوب!
وفي آخر الكتاب سنترعّضُ لهذا الموضوع تحت عنوان: "العودة إلى
القرآن".

والسّببُ الأساسيّ للهزيمة الكبرى أثناء الحرب العالميّة الأولى كانت نتيجة
ابتعاد المسلمين عن القرآن الكريم والسّنة النّبويّة الشّريفة، ومن السّهل أن
تجعلوا منها هزيمةً عسكريّةً، ولكنّها في الحقيقة تركّ التمسك بالدين الذي
أنزله الله تعالى لهداية البشر، وابتدعوا ديناً جديداً تحت أسماء مختلفة،
وتضرّعوا إلى الآلهة المزعومة ولم تستجب لتضرّعاتهم ففقدوا اليقّة
بأنفسهم.

المُرِيد : ما هي اليقّة بالنفس؟ المسلم يثق بالله وليس بنفسه، فاليقّة بالله
هي التي فُقدتْ.

بايندر : أقصدُ باليقّة بالنفس بأن يثق الإنسان بالقيم التي يؤمنُ بها، وبأنّ
عليه أن يعرفَ جيّداً وظيفيّة تحمّل القيم، فهذا مهمٌّ جدّاً، بل هو الإيمانُ
الحقيقيّ.

المُرِيد : هل لك أن توضحَ لنا أكثر؟

بايندر : انظروا إلى من كان يطعنُ في النّبّي صلى الله عليه وسلم؛ منهم
من يسخرُ منه، ومنهم من يضحكُ، ومنهم من يصفه بالسّاحر، ومنهم من
يرميه بالجنون، وما إلى ذلكم، فلو أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قدّ
تقتّه بقيمه أو شكّ في نفسه أو استمعَ إلى كلامهم فهل كان سيؤدّي
وظيفته في تبليغ الدّعوة؟

وقد نزلتِ الآياتُ الكثيرةُ لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم والرّبط على

قلبه حتى لا يضعف أو يفتر أو يداخله الشك بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: "والقرآن الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (يس، 2/36-4). وقال تعالى: " فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا ؕ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ ؕ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ " (الطور، 29/52-34). وقال تعالى: " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَعْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَيِّكُمْ الْمُنْفُتُونَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ، فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ، وَدُوا لَوْ تَدُهُنَ فَيَذَهُنَّ... فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ، لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ، وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ " (القلم، 9-1/68، 48-52).

فكانت هذه الآيات تُعطي الطمأنينة لقلبه صلى الله عليه وسلم وتثبت فؤاده، ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المعنى، وكان الله تعالى يقصص عليه قصص من كان قبله من الأنبياء والمرسلين تسلياً وتثبيتاً له صلى الله عليه وسلم، وإلا فكيف كان سيأشُرُ رسالته العظيمة؟ وعلى المسلمين أيضاً أن يُداوموا على الإكثار من قراءة القرآن وتدبره ليثبتوا على إيمانهم وعقيدتهم على الرغم من كل ما يواجههم من عقبات. فضعف أخذهم بالقرآن وضعف ثقتهم به كان بسبب تعطيلهم قراءته وفهمه، بل وأشد من ذلك أنهم راحوا يحتقرون أنفسهم باسم تركيتها. ومن المسلمين من عظم أقواماً ورفَعهم فوق منازلهم، وتخيلَ فيهم ما لا يمكن للإنسان إدراكه من جاهٍ وعظمةٍ، ثم اعتقدَ فيهم القدرة على المدد والعون، وسرى هذا المرضُ في المجتمع كالسرطان الفتاك.

وكان هذا من الأسباب التي أذهبت ريح المسلمين في الحرب العالمية الأولى، وجعلت منهم أقراماً بعد أن كانوا عمالقاً، وأمّا الباقون فمكتنوا على اعتقادهم السالف ذلك.

قال الله تعالى: "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ" (الرعد، 11/13).

المريد : صحيح، لكنّ الحكم أيضاً قد دخل فيه الفساد.

بايندر: أمّا عندي فالذنب في الأصل على العلماء، فهم بدل أن يتوجّهوا إلى القرآن أخذوا يعكفون على مصنّفات القدامى، ولو أنّهم حاولوا فهم القرآن لتمكّنوا تبعاً لذلك من فهم الأحاديث التي تُعدّ صعبة الفهم، لأنّ الأحاديث شارحة للقرآن، وقراءة الشّارح والمشروح مقترنين تُوفّر المعنى الصحيح، وعندها يُمكن فهم العلماء القدامى، ويمكن أن تكون مصنّفاتهم فاتحة آفاق، وبالتالي نستطيع التمييز بين من يُفسّر ظواهر وأحداث الحياة التي يعيشها وفق القرآن، وبين من يُفسّر القرآن تبعاً لتلك الظواهر والأحداث.

والعلماء الذين يرون أنّ عليهم تفسير الأحداث على ضوء القرآن مُستعدّون دائماً للتّجديد، فيفسّرون النّظورات العلميّة والتّقنيّة والاجتماعيّة تفسيراً صحيحاً، فلا يحتاج المسلمون إلى ملجئ آخر يلجؤون إليه، وأمّا الذين ابتعدوا عن القرآن والسنة مُنغلقيين في محيطهم، مكتفين بما هم عليه من علم لا يُواكب زمانهم فقد حكموا على أنفسهم بالانتحار.

وللسّلطان عبد الحميد الثّاني فيما يتعلّق بهذا الموضوع منكرات تُظهرُ حزنه وتأسّفه على مثل هذه الأحوال، وقد وقد إليه أميرٌ يابانيّ من عائلة ملكيّة، ومعه رسالةٌ خاصّة من الامبراطور اليابانيّ يطلبُ فيها بعثة من العلماء ليعلّموا لهم الإسلام.

والسّلطان عبد الحميد الثّاني أرسل إليهم كلّ ما يلزم من مالٍ لنشر الإسلام في اليابان، لكنّه لم يكن في وسعه أن يُنشئ بعثة من العلماء لتعليم

الإسلام، فظلاً هذا العجزُ غمّاً في قلبه وقد سجّل ذلك في مذكّراته، ويذكرُ سببَ ذلك العجز فيقول: "أرى وأنا الخليفةُ - أنني لو وجدتُ تلك البعثة التي يطلبُها إمبراطور اليابان من علماء الإسلام في بلدنا لأبقيتهم عندي ليُعلِّموا الإسلام هنا لشعبي".

وحسب السُّلطان، فإنّه رغم القدرات العلميّة لأولئك العلماء وتصوراتهم المختلفة عن العالم، فإنّهم عاجزين عن التّأثير في مستقبل الإسلام ودراسته واستخلاص العبر من الأحداث التّاريخيّة. ويشرّح سبب ذلك قائلاً: "العلماء المسلمون المرّبون ذوو العطاء العلميّ الفياض الذين يطلبهم إمبراطور اليابان غير موجودين، ومدارسنا محرومة من مصادر العلم والعرفان..".³⁵

المُرِيد : وإذا كان الأمرُ كما تذكرُ فإنّه لا يصحُّ تحميلُ المسؤوليّة على الطُّرق الصّوفيّة لهذه الدّرجة. وابتعادُ العلماء عن القرآن الكريم من جهةٍ قد يُسوِّغُ التّغاضي عن أخطاء المنتسبين إلى الطُّرق من جهةٍ أخرى. **بايندر:** لا نقبلُ هذا العذر، كما أنّ الله تعالى قد أخبرنا أنّه لا يقبلُ مثلَ هذا العذر، فالعالمُ والجاهلُ على السّواء يُحاسَبون عند الله إذا خالفوا القرآن الكريم، حتّى أنّ أمرَ الجاهلِ أسهلُّ من أمرِ العالم. وابتعادُ العلماء عن القرآن الكريم عوّدَهم على مرِّ الزمن على الخرافات، فصاروا يُخالفون آياتِ القرآن قطعياً الدّلالة في مسائل كثيرة، ورُيِّنَ لهم عملهم، وأتيكم بمثالٍ بالوثائق الرّسميّة المتعلّقة بدخول الدّولة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى، وهذه الوثائقُ تُبيِّنُ كيف كانوا ينتظرون المدد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من دون الله تعالى للانتصار على الأعداء، وكأنّه لم يكن رسولاً لله، بل إلهٌ ثانٍ مع الله تعالى؛ حيّ لا يموت، يسمعُ نداءَ المستغيثين ويرى حوادثَ الأمور، ويملكُ القدرة على إجابة الدّاعي بما يريد؛ فتعالَ اللهُ عمّا يُشركون. وهؤلاء الذين يلتمسون هذا العونَ هم عند الله تعالى قومٌ ضالّون، قال

³⁵ فاتح أوقيار، آدم في ثلاثة أطوار، اسطنبول 1980. ص 101-103

تعالى: "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ" (الأحقاف، 5/46). والآن نلقي النظر
على هذه الوثائق المذكورة:

الوثيقة الأولى: بيان السلطان رشاد

في القسم الأخير من بيان السلطان رشاد المتعلق بإعلان دخول الحرب
نجدُ هذا التصريح: "لا شك أن الله ذا العدل المطلق يشملنا بعنايته العلية،
وأن النبي صلى الله عليه وسلم صاحب الشأن العظيم معنا جنباً إلى جنب
بإمداده المعنوي، لأننا أهل حق وعدل، ولأن أعداءنا أهل ظلم
وعُدوان...".³⁶

الوثيقة الثانية: بيان أنور باشا

نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة أنور باشا يقول في مقدمة بيانه:
"بعناية الله وإمداد نبيه الروحي، وببركة دعاء السلطان، فإن جنودنا
سيقهرون الأعداء...".
وفي وسط البيان ما يلي: "علينا أن نعلم جميعاً أن روح النبي وأرواح
صحابه الكرام تُرفرف فوق رؤوسنا...".³⁷

الوثيقة الثالثة: بيان دعوة الأقطار الإسلامية إلى الجهاد

خُصِرَ هذا البيان من قبل المجلس العلمي الأعلى، ووُقِعَ من قبل السلطان
رشاد خليفة المسلمين، وفي أسفل البيان توقيع أربعة وثلاثين عالماً من
أعلى المناصب في البلاد؛ أربعة منهم في وظيفة شيخ الإسلام، وثلاثة
قدماء، وواحد كان ما يزال في منصبه، وعلي حيدر أفندي أمين الفتوى.

³⁶ 22 من ذي الحجة، البيان السلطاني 1332، الجريدة العلمية، نسخة محرّم 1333،
العدد 7، ص 436

³⁷ بيان نيابة القيادة العليا للقوات المسلحة، الجريدة العلمية، محرّم 1333، العدد 7،
437-436

ويُنْهِي الْبَيَانُ فِي فِقْرَتِهِ الرَّابِعَةِ بِهَذَا التَّصْرِيحِ: "وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ إِلَى الْجِهَادِ سِرَاعًا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ دِينِهِ الْمُبِينِ أَنْ يَنْصَرَهُمْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، وَأَنْ يَشْمَلَهُمْ بِلُطْفِهِ الْعَظِيمِ، وَالنَّبِيُّ حَاضِرٌ بِرُوحِهِ الْمُقَدَّسَةِ لِأَخَذِ بِيَدِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ الْمَالَ وَالنَّفْسَ فِدَاءً لِتَعْظِيمِ شَرِيعَةِ أَحْمَدَ الْغَزَّاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّاجِيَةِ".³⁸

ثُمَّ تَأْتِي الْفِقْرَةُ الْأَخِيرَةُ كَمَا يَلِي: "يَا مُجَاهِدِي الْإِسْلَامِ! بِعَنَايَةِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ، وَبِرُوحَانِيَّةِ وَمَدَدِ النَّبِيِّ الْمُحْتَرَمِ، دَمِّرُوا الْأَعْدَاءَ وَأَقْهَرُوهُمْ، وَأَدْخُلُوا السُّرُورَ وَالسَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَعَدَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ".

المُرِيد : الْمُسْلِمُونَ يَخْرُجُونَ لِجِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَسُرُّ النَّبِيَّ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ يَمَدُّ الْمُسْلِمِينَ بِرُوحَانِيَّتِهِ، وَلَا عَجَبَ أَنْ تَرْفَرَفَ أَرْوَاحُ الصَّحَابَةِ الْأَخْيَارِ فَوْقَ رُؤُوسِ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَشَارِكُوهُمْ فِي الْجِهَادِ. **بَايَنْدِر :** لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَابَتُهُ الْأَخْيَارُ أَحْيَاءَ لَسَرَّهُمْ هَذَا، وَلَكَانُوا فِي نَصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ تَوَفَّوْا، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتْرِكَ مَا يَمْلِيهِ عَلَيْنَا خَيَالُنَا وَأَنْ نَنْتَبِعَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ. وَاللَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ أَنَّ طَلَبَ النَّصْرِ مِنْ غَيْرِهِ شَرِكٌ بِهِ عَزْرٌ وَجَلٌّ، فَحَرَّمَهُ تَحْرِيمًا قَاطِعًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ" (الْحَجَّ، 62/22). بَلْ أَيُّ كَانَ الَّذِي يُدْعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ عَاجِزٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِجَابَةِ. قَالَ تَعَالَى: "ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ" (فَاطِرٌ، 13/35-14).

³⁸ تاريخ البيان نامه 4 من محرم من 1333 (1914/11/23)، الجريدة الرسمية، نسخة

محرم 1333، العدد 7، ص 456-457.

فدعاء غير الله تعالى شرك، وهو مخالفة لفطرة الله التي فطر الناس عليها، والله تعالى لا ينصر مثل هؤلاء لأنه يقول سبحانه: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" (الأنعام، 82/6).

ألم يكن الذين غزوا المسلمين في الحرب العالمية الأولى من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان وغيرهم من النصارى (المسيحيين) يدعون الله لينصرهم؟ نعم، ولكنهم يشركون المسيح عليه الصلاة والسلام بالله في دعائهم، كما أن المسلمين فعلوا ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإذا كان الأمر كذلك، فما الفرق بينهم وبين المسلمين؟ أيهما يستحق أن يخرج من الحرب ظافراً؟ ثم إن الكتاب الذي تمسك به العدو مُحرف، وكتاب المسلمين محفوظ غير مُحرف، ولكن المسلمين قد ابتعدوا عنه ولم يعملوا بمقتضاه، ففي هذه الحالة لا فرق بين أن يكون مُحرفاً أو محفوظاً.

المُرِيد : لقد غلب المسلمون في كثير من المعارك عبر التاريخ، وكان هذا امتحاناً من الله تعالى لهم، فما هو جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغلب في غزوة أحد، ولكن الأحوال تغيرت فيما بعد بما فيه خير المسلمين بفضل عمل نبي الله صلى الله عليه وسلم.

بايندر : في هذا الموضع حاول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القائد أن يغير الوضع لصالح المسلمين فنجح، لكنه لم يقل: "أنا رسول الله، وهذه المعركة تنتصرون فيها بدعائي وتأبيدي المعنوي"، لقد جاهد وهو قائد الجيش بكل ما يستطيع في كل معاركه.

وفي هذه المعركة ليست الهزيمة التي نكرناها مهمة إلى ذلك الحد، فأنتم إذا تجمعتم ورجعتم إلى أنفسكم ستكونون قادرين على ضرب العدو ضربة شديدة، لكن إذا كانت الهزيمة من الداخل، فلن يستطيع المسلمون فعل أي شيء.

وهكذا كان انهزام المسلمين وانحطاطهم بأسبابٍ داخلية، وقد فقدوا تقنهم بأنظمتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية منذ عهد بعيدة،

فلذلك استبدلوا أنظمتهم بأخرى غريبة وضعوها محلها، كما فقدوا تقّتهم بأنفسهم.

والذي يُريد أن يفهم ذلك، عليه أن ينظر إلى ما يتمّ تدريسه في المدارس التي يدعمها المسلمون، وإلى الطُّلاب المبعوثين إلى البلدان غير الإسلامية مُدعّمين بوسائل مائيّة ضخمة، وما هي المبادئ التي يذهبون لمعرفة؟ ولو قارنًا بين ما يُبدل من جهودٍ لمعرفة المبادئ الأجنبية مع ما نبذله لمعرفة مبادئنا القيميّة يبدو أنّ الفرق رهيبٌ، وهو ممّا يضعفنا في مواجهة تحديات العصر.

والذين يُريدون المزيد لفهم هذا الأمر، فلينظروا إلى مدارس المسلمين وإلى تلك الحرارة التي يدعون بها المنهاج المُدرّس فيها، ولينظروا إلى المنهاج الذين يدرسه الطُّلبة المبعوثون إلى أوروبا وأمريكا بإمكانات ماديّة ضخمة. لو قسنا ما نبذله نحن من جهودٍ لتدريس نظامنا الخاص بما يُنْفَقُ على الآخرين لظَهَرَ الفارقُ مُخيفاً جداً، وهؤلاء الطُّلبة يصدُّوننا عن مواجهة الغرب والصمود أمامه.

المُريد : ماذا تُريدُ أنت من الطُّرق الصوفيّة؟ إنّ الطُّرق الصوفيّة ومؤسساتها غير قانونيّة في تركيا.

بايندر : الإغلاق الرّسمي لمؤسّسة اجتماعيّة تابعة للشّعب لا يُنهي عملها، ولا يزيلُ الخرافات، وهنا تظهرُ وظيفة العلماء، فعليهم أن يُعلّموا النّاس، وأن يُطهّروا أذهانهم من الخرافات، وأن يُزوّدوهم بالعلم الصّحيح، ولا يُدّ من أن يكون عملهم مُستمرّاً غير مُنقطع.

وما نجده بين أيدينا من مثل هذا العمل لا يفي بالغرض المقصود، فكم من النّاس من يكتفي بما يجده من البدع والخرافات ليتخذها ديناً يتبعه، ثمّ إنّ أيّ إهمالٍ أو تهاونٍ قد يتسبّب في ظهورها من جديد.

المُريد : ها هم المتعلّمون وأصحاب الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة الرّاقية ينتسبون إلى الطُّرق الصوفيّة ويُساندونها! وهذه الحالة تكفي في إبطال رأيك؛ أليس كذلك؟

بايندر : قد يكون هؤلاء من أصحاب المعارف في ميادين مختلفة، إلا أنه
يُمكن خداعهم وغرهم بسهولة لقلّة علمهم بدينهم، و فقرهم إلى الشّعور
الذّينيّ، لذا يجبُ تعليمُ الدّين على شكلٍ صحيحٍ لكلِّ واحدٍ من النّاس حتّى
يحفظهم من الانزلاق في البدع والخرافات، وبهذا يمكنُ إبعاد المسلمين عن
أذى المنافقين الذين يُروجون البدعة والخرافات في أوساط المسلمين
ويُخالفون من يُريد التمسك بالدّين الصّحيح.
المُريد : وهل أنت الذي تقومُ بتصحيح أخطاء العلماء السّابقين؟ وهل أنت
أعلمُ منهم؟

بايندر : ليس الغرضُ من العلم جمعُ المعلومات وحفظُ المجلّدات من
الكتب، ولكنّ العلم هو كافيّة الاستفادة منه، فإذا لم يُعرف الصّوابُ من
الخطأ ما فائدةُ هذا العلم؟ فإنّ كثرةُ العلم بهذا الشّكل لن يصنع شيئاً سوى
الضّلال. وذات يومٍ قال لي عالمٌ مشهورٌ: "يا سيّد عبد العزيز، دع عنك
الاشتغال بقضيّة التّصوّف، فإنّه لا يكونُ تصوّفٌ دون خُرافة. فقلتُ له:
أليسَ وظيفتنا هي نبذُ الخرافات التي تقودهم إلى الشّرك؟ أين حضرتك من
قوله تعالى: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة، 71 / 9)
قال: صحيحٌ، إنّها تُؤدّي إلى الشّرك، ولكنّ النّاس لا يستمعون إليك ولا
يصلحون. قلتُ: وهل تركَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الدّعوة بسبب عدم
إجابة النّاس له؟ والرّسلُ قدوتنا. قال: نعم، ولكنّي أنصحك حرصاً على
خيرك، فأنت شابٌّ ومُستقبلك زاهرٌ، وأولئك أقوياء جدّاً، ولن تُحقّق معهم
هدفك المنشود، وسيجلبون الصّررَ على مُستقبلك! قلتُ: أنا لا أنتظرُ منهم
شيئاً، وإنّما أعتدُّ على الله تعالى الذي لا ندّ له ولا شريك؟ قال: إيّ
أشفقُ عليك. قلتُ: بل أنا من يُشفقُ عليك. فحالكُم يُشبهُ حالَ الذين لم
يعطوا المُعتدين في السّبب وتركوهم وما كانوا عليه من تجاوز حُرمة ذلك
اليوم. وأكتفي بذكر قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبُّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" (الأعراف، 7 / 164-165).

قال: والله لا أدري يا أخي، ولكي أكلّمك فيما ينفَعُك. قلت له: إني لو أعلم أنه لم يبق لي من الحياة إلا قدرُ جُرعة من الهواء أتتفَسُّها لاستخدمته في مُحاربة هذه العقائد الفاسدة.

وهذا الرَّجُل نفسه كان قد أرسلَ لي التَّهنئةَ بمناسبة الطَّبعة الأولى لهذا الكتاب قائلاً: "هذا عملٌ عظيمٌ، فلا أحدٌ يجرؤُ على نشر كتابٍ مثل هذا، لقد نجحت في إنجازِ عملٍ عظيمٍ جدًّا وبارك اللهُ فيكَ ووفَّقَكَ اللهُ لما يُحبُّه ويرضاه.

المُرِيد : نعم أنت على حقٍّ، فبعضُ العُلَماء لا يُريدون مُواجهةَ المشاكل، ولكن لم تخلُ فترةٌ من الزَّمن إلا وقد وُجِدَ فيها عُلَماءٌ حقيقيون يُجادلون في إظهار الحقِّ.

بايندر : لا يكفي أن يكون المرءُ صاحبَ علمٍ وحسبٍ، بل أن يجب أن يستعمله كما ينبغي. والله تعالى يضربُ لنا مثلاً بآدم عليه السَّلام، حيث قال جلَّ شأنه: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» (البقرة 31/2-33).

ثمَّ أسكَنَ اللهُ تعالى آدمَ وزوجَه الجنَّةَ وحَدَّرهما من اتباع الشَّيطان فقال لهما: « فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى. فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْئَى. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِهُمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» (طه 117/20-121).

ولا يستطيع أحدٌ من العلماء أن يبلغ ما بلغه آدمٌ من كرم العيش، فكيف خدعه الشيطانُ بأن دلهما إلى الشجرة، وقال لهما إنها شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى فأخرجهما ممّا كانا فيه؟

وكذلك يُخدع الكثير من العلماء الذين يريدون ملذات الحياة الدنيوية، فيحيدون عن الطريق المُستقيم.

والعلمُ كأموالٍ حلالٍ؛ فكما أنّ المال الحلال يُمكن استعماله في الشرِّ، فكذلك العلم يستعمله أهل الرِّبع لإضلال النَّاس، والعالمُ الحقُّ العامِل بعلمه هو الذي لا يتحرّج من ذكر الحقِّ وتبليغه رغم العقبات والمصائب التي يُلاقِيها في سبيل الدَّعوة إلى الله تعالى، والذين يعلمون الحقَّ كثيرون ولكنَّ قائله قلَّةٌ من النَّاس.

وما نقوله للنَّاس من الحقائق معلومٌ لديهم، ولكنهم يتجاهلونه لأغراضٍ دنيويةٍ.

المُرِيد : أنتِ قلتِ إنّ المسلمين في هزيمةٍ أمام المجتمع الغربيِّ، إنك لا تستطيع أن تجعلَ الغربيِّ أعلى من المسلم أبداً، ألم يقلِ اللهُ سبحانه: «وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (آل عمران، 139/3).

بايندر : مَنْ الذي يجعلُ الغربيِّين أعلى من المُسلمين؟ حديثي عن ابتعاد المسلمين عن الإسلام، فحين أصبحَ المسلمون يُقلِّدون غيرَ المسلمين ويعشقون ثقافتهم وينقلونها إلى ديارنا منذُ أكثر من قرنٍ، فإنَّ الهزيمة كانتُ لزاماً أن تلحقهم، ولاحظِ الآيةَ : « وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»، وهل نحنُ مُؤمنون حقّاً؟ وهل يكونُ مَنْ يتركُ كتابَ الله وراءَ ظهره ويتمسكُ بغيره مُؤمناً حقّاً؟

وعلينا الاعترافُ بأنَّ ما نحنُ عليه من سوءِ حالٍ في حياتنا عقابٌ من الله تعالى، كما قال تعالى: « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ» (هود، 100/11-101).

يستتصرون بغير الله تعالى.

المُرِيد : ما تذكُرُهُ من آياتِ تتحدَّثُ عن الشِّرْكِ، والذَّيْنِ تتحدَّثُ عنهم

مُسلمون كلُّهم، ليس فيهم مُشركٌ. فهل يصحُّ صنيعُك هذا؟

بايندر : كثيرٌ من الآياتِ القرآنيَّةِ تتحدَّثُ عن الشِّرْكِ، منها قوله تعالى

يُخاطِبُ نبيِّه صلى الله عليه وسلم: « وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ

أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

(القصص، 87/28-88).

وعلى هذا فعلى المسلمين أن يعودوا إلى كتاب الله أولاً ثمَّ يقوموا بالأمر

بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر وإلَّا سيكونُ عاقبتُهم مثلَ عاقبةِ الذين من

قبلهم، يقولُ الله تعالى: « فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ

يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ

وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ » (هود، 116/11-117).

10. قتال الشُّهداء

المُرِيد : فما قولُكَ في أرواحِ الشُّهداءِ الذين يحضرون المَعاركَ لمساندةِ

المجاهدين؟ إنَّه أمرٌ يقرُّ به الأعداءُ أنفسهم، ألا يدلُّ وقوعُ ذلك الأمرِ على

أنَّهم أحياءٌ؟ كما قال تعالى: « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ

بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » (البقرة، 154/2).

بايندر : أكملِ الآيةَ إلى آخرها، أي اقرأها مع قوله تعالى: "ولكن لا

تشعرون". كيف تدَّعي مُشاهدةَ مَنْ لا تشعُرُ بحياته، فأنت لا تشعُرُ أنَّه

على قيد الحياة ثمَّ تدَّعي أنَّك شاهدته، هذا كلامٌ لا يقوله العاقل، صدَّق

الله حيثُ قال: « وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ »، وكذبت حيثُ قلتُ أنَّك شاهدت

ذلك.

واللهُ تعالى لا ينصُرُ المُسلمين بالشُّهداء، وإنَّما ينصُرُهم بالملائكة، ووقَّعَ

هذا في غزوة بدر. قال تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ. بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدْدَكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » (آل عمران، 123/3-126).

وقال الله أيضاً: « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُمْ فَانْتَبِهُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » (الأنفال، 12/8).

وعن أبي داود المازني - وكان شهيداً بدرًا - قال: " إِنِّي لِأَتَّبِعُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرِ لِأَصْرَبَهُ إِذْ وَقَعَ رَأْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي".³⁹

وقال أبو جهل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يوم بدر: "أَنْتَ قَتَلْتَنِي؟ إِنَّمَا قَتَلْتَنِي الَّذِي لَمْ يَصِلْ سِنَانِي إِلَى سَنبِكَ فَرَسَهُ وَإِنْ اجْتَهَدْتَ".⁴⁰ ثم يقول القرطبي في تفسير الآية: "... فَكُلُّ جَيْشٍ صَبَرُوا وَاحْتَسَبُوا تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَيُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ".⁴¹

المريد : وإذا كان الشهداء لا يموتون، فما المانع من حضورهم القتال؟
وإذا كنا لا نفهم حياتهم بتمامها، فما المانع من فهم جزء منها؟
بايندر : وحين تتكلم عن مثل هذه المسائل لا بُدَّ من أدلة تعتمد عليها من الكتاب والسنة، ولا يوجد أي دليل على أن أرواح الأنبياء السابقين والشهداء المتقدمين قد حضرت المعارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أصحابه. وقد قال الله في الشهداء: « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

³⁹تفسير الطبري، 3/422-423، بيروت 1412هـ/1992م

⁴⁰الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 4/125، بيروت 1408هـ/1988م

⁴¹المرجع السابق

فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران، 169/3-171).

والله ذو الفضل العظيم فَضَّلَ الذين يموتون في سبيله على غيرهم من الموتى تفضيلاً خاصاً، وإمّا إرسالُ الله الشَّهداء للقتال فلا بدَّ له من دليلٍ، وإذ لم تأتوا بالدليل على زعمكم هذا فهو غيرُ مقبولٍ لأنَّ الآياتِ تُبَيِّنُ أَنَّ الذين يحضرون الجهاد إنّما هُم الملائكة.

11. رجال الغيب

المريد: فأنت إذا لا تؤمن بالثلاثة ولا بالسبعة ولا بالأربعين من رجال الغيب ولا بالأقطاب ولا بالأغوات. ألا تعلم أن الأولياء العظام يُقال لهم الأوتاد، ثم فوقهم الرواسي؟ فإذا ما وقعت كارثة توجّه العباد إلى الأوتاد، ثم الأوتاد إلى الرواسي، ثم يقضي القطب حاجة الرواسي. ويُقال للذين يليان القطب في المرتبة الإمامان، ويُقال لأحدهما الإمام اليمين وللآخر الإمام اليسار، واليمين يُمثّل أحكام القطب، ويمثّل اليسار حقيقته، ثم إذا مات خلفه الإمام اليسار، ويُقال لهم مجتمعين الثلاثة.

والقطب: أعظم وليّ، كبير رجال الغيب، يتصرّف في الكائنات بإذن الله، وهو الذي يدعى عند الشدائد ويلجأ إليه ويستعان به.

والغوثن: هو الذي الذي يُناديه الصوفيّة عند الشدائد بقولهم: "يا غوث"، فيجيب نداءهم، وعبد القادر الجيلاني اشتهر بلقب "الغوثن الأعظم".

ثم إن كل هذا الالتجاء والاستمداد وإن أُريد منه الغوث في الظاهر، فهو في الحقيقة يُقصد به الله لأنّ المتصرّف الوحيد في العالم هو الله تعالى، لا يُشاركه أحد مطلقاً، والذي يُعرف بالغوثن تتجلى فيه صفات الله وأسماءه الحسنى.

ومن دون هؤلاء النُجباء، وعددهم ثمانية، وفي رواية أربعين، والنُّقباء عددهم إمّا عشرة وإمّا ثلاثمئة، ومن رجال الغيب من يعرفُ أسرار القلوب،

وبصفةٍ عامّةٍ فإنّ رجالَ الغيبِ المعروفين بأولياءِ الحقِّ لا تبقى مقاماتهم شاعرةً أبداً، فإنّه يخلفهم بعد موتهم من هم دونهم.

بايندر : هل لكم دليلٌ تستندون إليه فيما تقولون؟ أنتم تتحدّثون عن القُطبِ وتقولون أنّه أعظمُ الأولياءِ ورجالِ الغيبِ، وهو صاحبُ النَّصْرُفِ بإذنِ الله في الكائنات! ألا يُشبهُ تعريفُكم هذا ما كان يقوله مشركو مكّة أثناء طوافهم بالبيت: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريكَ لك إلا شريكاً هو لك تملكُهُ وما ملكٌ"⁴².

المُرِيد : يُكَلِّفُ اللهُ بعضَ النَّاسِ بجملةٍ من المهام للحفاظ على نظام الدُّنيا المادّي كما يشاء، ومن أجل الحفاظ على نظام الدُّنيا الرُّوحيّ والمعنويّ، ولضمان الخيرات وإزالة الأشرار يُوظَّفُ بعضُ مَنْ يحبُّ منهم، فهؤلاء يُقالُ لهم الأبدال، وهم الذين يُعوّضون الأنبياء العظام. وهم الذين أعرههم الله، ويُقالُ بأنهم هم الذين سحَّرَ لهم ما في الأرض، فهم سببُ نظام العالم، كما يُعتقَدُ أنّهم يُنظِّمون حوائجَ النَّاسِ.

بايندر : أنتم تقولون عنهم: "سحَّرَ لهم ما في الأرض"، لكنّ أسلوب تعبيركم يُفيدُ بأنكم لا تعتقدونه تمام الاعتقاد، والتسخيرُ هو السِّياقَةُ إلى الغرضِ المُختصِّ قهراً⁴³. والله تعالى مالكُ المخلوقات يقول: « اللهُ الَّذِي سَحَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَحَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (الجاثية، 12/45-13). ونحن نستفيدُ من كلّ ما سحَّرَ اللهُ لنا في السَّمَاوَاتِ والأرضِ برّاً وبحراً، ويُشبهُ صنيعكم ذلك كأن تبني الدولة جسراً لخدمة المواطن، لكنّ ما ذكّر في الآيات يدلُّ على أنّ الله سحَّرَ ما في السَّمَاوَاتِ والأرضِ لكليّ البشر، وما يُريده اللهُ ممّا هو مقابلهُ نعمه هذه بالشُّكر، إلا أنّ غيرَ المسلمين اليوم يستفيدون منها أكثر من المسلمين !

⁴² مسلم، الحج، 22، حديث رقم 1158

⁴³ المفردات للراغب الأصفهاني، بيروت 1992/1412

لكنكم إذ جعلتم التسخير خاصاً ببعضٍ دونَ بعضٍ، كنتم قد فصلتموهم على غيرهم من الناس، فحالكُم هذا يُشبهه تماماً حال سگان قرية يمرُ أمامها طريقٌ عامٌ بُني عليه جسرٌ، ثمَّ جاء مسؤولٌ لتدشينه فقال: "هذا الجسر بُني لخدمتكم" فقيل بعد ذلك: "إذا كان هذا الجسرُ قد بُني لخدمتنا، فإننا نكلُ أمرَ استخدامه لعميد القرية، وعليه أن يُنظِمَ المرورَ فيه". فاتخذَ العميدُ قراراً بأن لا يُسمحَ لسگان القرية المجاورة الذين اعتدوا على أراضيهم الزراعيَّة بالعبور عليه، فقراره لا يمكنُ قبوله، ذلك بأنَّ الجسر ليس حكرًا على تلك القرية، فهو لكلِّ من يمرُّ عليه، بُني من أجله، وسجَّر له ليستفيدَ منه.

المُرِيد : ليسَ الثلاثة والسبعة والأربعون والأقطاب كسائر الناس، إنهم عوضٌ عن الأنبياء الكبار.

بايندر : إذا كان الأمرُ كما تقول، فمنَ هو النَّبِيُّ الذي أُسندت إليه أمانه "الحفاظ على نظام الدنيا الرُّوحي والمادي ضماناً لخير الناس وإزالةً للشَّرِّ"؟

الله تعالى الذي حدَّ للبشر حدودَ تصرُّفاتهم يأمرُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يقول: « .. إني لا أملكُ لكم صرّاً ولا رَشْداً. قلْ إني لن أُجيزنِي من الله أحدٌ ولن أجد من دونه مُلتحداً. إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإنَّ له نارَ جهنمَ خالدينَ فيها أبداً (الجن)، 21/72-23). فأمرُ الحفاظ على نظام الدنيا الرُّوحي والمعنوي، وضمان الخيرات وإزالة الأشرار بيد الله تعالى وحده، فاعتقادُ أنَّ لهم القدرة على التصرُّف في هذه الأمور شركٌ بالله عز وجل.

ولو كان للنبيِّ عليه الصلوة والسلام هذه القدرة لاستعملها برمتها لإرغام الكفار على الإيمان، وربُّنا عزَّ وجلَّ يقولُ في هذا الأمر: « وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (الأنعام، 35/6).

وليس أمر إتيان المعجزة بيد الرُّسل، وإنما يُظهرها الله تعالى متى شاء .
قال تعالى: « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ
مَنْ لَمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا
جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » (المؤمن،
78/40).

12. الأرواح العلوية والسفلية

طبعاً من الصَّعب أن تُقدَّس الأحياء، ولكن يسهُلُ لكثيرٍ من النَّاسِ تقديسُ
الأموات الذين تركوا أثراً طيباً في قلوبهم، كما أنَّ الأموات لا يطلبون منهم
مقابلاً للتَّقدیس؛ على عكس الأحياء فإنَّهم إذا عرفوا أنَّ لهم مكانةً عند
النَّاسِ سيبدؤون بمحاولة السَّيطرة عليهم، والمقصودُ بالأرواح العلوية هؤلاء
الأموات، ويُقالُ لها أيضاً المُقدَّسة أو الطَّاهرة. وأمَّا الأرواح السَّريرة فهي
السُّفلية، ويُقالُ لها أيضاً الأرواحُ الخبيثة، ومنها شياطينُ الجنِّ والإنسِ.
المُريد : يقولُ أحدُ شيوخنا في هذه المسألة:

" في حين أنَّ من وظائف الأرواح العلوية الطَّاهرة حماية النَّاسِ، فإنَّ
الأرواح السَّريرة الخبيثة تضرُّ النَّاسَ بكلِّ ما تملكُ من قوَّة، وهي لهم خصمٌ
وعدوٌّ، والأرواحُ الخبيثةُ تحملُ في طبيعتها كلَّ أنواع الشرِّ. والنَّاسُ
الصُّعفاء في إراداتهم وعقولهم وتديُّنهم يجدون أنفسهم تحت قبضتهم
وتصرُّفهم"⁴⁴.

بايندر : هذا زعم باطل، والخيرُ والشرُّ بيد الله تعالى، وقولكم هذا في
الأرواح العلوية الطَّاهرة، وفي الأرواح السَّريرة الخبيثة يدلُّ على أنَّكم
ترجون من الأرواح العلوية أن تجلب لكم الخيرَ وتخافون الأرواح السُّفلية
من أن تجلب عليكم الشرَّ، ولكنَّ تلك الأرواح المزعومة لا تنفع ولا تضرُّ،
قال الله تعالى: « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُنُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (البقرة، 188/2).
والله هو القاهرُ فوق عباده، لم يكلِّ لأحدٍ أمانةَ حفظهم، وفي آية الكرسيِّ

⁴⁴جريدة الزَّمان، مقالة بعنوان "الأرواح العلوية والسُّفلية" 1995/09/29

التي نقرؤها دُبَّرَ كُلِّ صَلَاةٍ يَقُولُ تَعَالَى: « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » (البقرة، 255/2).
ويقول أيضاً: « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي
الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا » (الإسراء، 111/17).
فالله تعالى غنيٌّ عن كلِّ وليٍّ، وليس له حاجةٌ إلى أحد، ورجاءُ الخير من
طائفةٍ روحانيَّةٍ وحذرُ الشرِّ من طائفةٍ شريرةٍ يُشبهه دينُ الذين يُؤمنون بألهة
الخير وآلهة الشرِّ، ولننظرُ في الآيات التي جاء فيها ذكرُ الرُّسل، ولنُفَارِنَ
بها كلامَ الشَّيخ لتعرفَ الحقيقة.

13. الرُّسل في القرآن الكريم

قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا » (النساء، 79/4).
والرُّسول في اللُّغة يُقال: "... لِمَنْ يَحْمِلُ الرِّسَالَةَ وَالْقَوْلَ " وفي اصطلاح
الفقهاء أنه: "مَنْ يَنْقُلُ قَوْلًا إِلَى غَيْرِهِ دُونَ تَصَرُّفٍ مِنْهُ". وأمَّا في
الاصطلاح الشرعيِّ فهو: "إنسانٌ بعثه اللهُ إلى الخلق لتبليغ ما يُوحيه
إليه".⁴⁵

أ - وظائف الرُّسل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام

بيَّن اللهُ تعالى وظائفَ الرُّسل بأنَّها على ثلاثة أوجه:

1. تبليغُ دعوةِ اللهِ، قال تعالى: « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ » (النحل، 35/16). وقال تعالى: « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ
بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ »
(المائدة، 67/5).

⁴⁵التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني ص 115 دون تاريخ ومكان الطبع.

2. تبيينُ أمر الله، قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (إبراهيم، 4/14). وقال: « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (النحل، 64/16).

3. التبشيرُ والإنذار، قال تعالى: « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (الأنعام، 48/6). وقال: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (سبأ، 28/34).

ب - حدودُ تصرفات الرُّسل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام

1. ليسَ على الرُّسول أن يحفظَ أحداً، قال تعالى: "فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ" (الشعراء، 48/42).
2. ليسَ الرُّسولُ وكيلاً على أحد؛ لا لله على الخلق، ولا للخلق على الله، فلا يتولى أمرَ الخلق لله، ولا أمرَ الله للخلق، قال تعالى وهو وكيلاً: « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » (الأنعام، 107/6)، وقال: « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » (هود، 12/11).
3. الرُّسولُ لا يهدي إلى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ، بمعنى أَنَّهُ لا يُقَلِّبُ القلوبَ إلى الهداية، قال الله سبحانه وتعالى: « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ» (القصص، 56/28). ولكنّه في الوقت نفسه يهدي إلى الطريق المستقيم، بمعنى أنّه يُبَيِّنُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، قال تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (الشورى، 52/42).

4. ليس للرّسول أن يُكْرِهَ الخلق على الإيمان، وقد تَرَكَ اللهُ لَهُمْ حُرِيَّةَ اخْتِيَارِ عَقِيدَتِهِمْ، قال تعالى: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ» (الغاشية، 21/88-22).

5. الرّسول لا يعلمُ خفايا القلوب، يُبَيِّنُ هذا الآيتان التّاليتان: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ» (التوبة، 101/9)، وقوله تعالى: « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذِرْهُمْ فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ» (المنافقون، 4/63).

6. الرّسول لا يعلمُ إلّا ما أوحى اللهُ إليه ولا يعلمُ الغيبَ، قال اللهُ: « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» (الأنعام، 50/6)، وقال اللهُ لرسوله صلّى اللهُ عليه وسلّم: « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأعراف، 188/7). فإذا كان هذا حال الأنبياء، فكيف يكونُ حالُ مَنْ هو دونهم ممّن يزعمون أنّهم أولياءُ الله؟

14. علم الغيب

يقول الرَّاعِبُ الأصفهاني في تعريف الغيب: " الغيب: مصدر غابت الشمس وغيرها: إذا استترت عن العين، يُقال: غاب عني كذا. قال تعالى: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ» (النمل، 27 / 20). واستعمل في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّة، وعمَّا يغيَّب عن علم الإنسان، بمعنى الغائب⁴⁶. من ذلك معرفة عدد النجوم، فإنَّه لا أحد يعلمه إلا الله تعالى، فيقال له غيبٌ مطلقٌ. وأمَّا ما يعرفه آحادُ النَّاس فلا يُقال له غيبٌ مُطلقٌ، كالذي يدور في قلوبكم، فإنَّكم تعلمونه ولا أعلمه، فهو بالنسبة لي غيبٌ، وبالنسبة لكم ليس بغيب. والشيوخ يدعون معرفة علم الغيب، حتَّى إنَّهم ليذهبون إلى القول بعلم السَّاعة، وأنَّهم يعلمون ما يحدث في غدٍ وبأيِّ أرضٍ يموتُ الإنسان، فانظروا في كلام الله كيف يُكذِّبُ هذا الادِّعاء ويردُّه مُطلقاً. قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (لقمان، 34/31). وممَّا له صلةٌ بهذا الموضوع سؤالُ أحمد بن المبارك شيخه عبد العزيز الدبَّاح: يا سيدي! بعض العلماء اختلفوا في الجواب على السؤال التَّالي: هل كان يعلمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم المسائل الغيبية الخمسة التي ذُكرت في سورة لقمان أم أنَّ الله تعالى علَّمه ذلك؟ فكان جوابُ الشَّيخ عبد العزيز كما يلي: طبعاً كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعلمُها، وكيف لا يعلمُها وقد أُعطيَ له ولأولياء من أُمَّته التَّصَرُّفَ المُطلقَ ولا يكون أحدٌ منهم أهلاً للتَّصَرُّفِ حتَّى يعلمَ هذه المسائل؟ ومثُلُ هؤلاء المشايخ يعلمون متى قيام السَّاعة، ويعلمون ما سيحدثُ غداً، وبأيِّ أرضٍ يموتُ الإنسانُ، فالآية السَّابقة - والعياذ بالله - لا عمل لها عندهم!

وانظروا أيضاً إلى آيتين أخريين هما قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ

⁴⁶المفردات للرَّاعِب الأصفهاني، مادة غيب.

أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا
عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ « (الأعراف، 187/7)،
وقوله تعالى: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا،
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا. إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا « (النازعات، 42/79-
45).

إيبي لم أُرِدْ أن أنقل في هذا المقام مثل هذه الأقوال التافهة لعبد العزيز
الدَّبَّاح الذي لا يُقيم للقرآن وزناً ويرى نفسه فوق كل شيء، ولكن ماذا
عساي أعلِّم وقد فسدت عقائد المسلمين؟! لقد أمضيت وقتاً بقراءة كتاب
الإبريز، وقرأت ترجمته باللُّغة التركيَّة لجلال يلدرم الذي كان له موضع
احترام في نفسي.

وفي المُقدِّمة يُعطي لكتاب الإبريز تقديساً حيث يقول: "... والإبريز من
بين سائر المصنَّفات في بابهِ ذهبٌ خالصٌ غيرُ مشوَّب، لأنَّ عبد العزيز
الدَّبَّاح وليٌّ كبيرٌ بلَّغَ درجةَ الكمال، حَيَّرَ العلماء، وأدهش العقول، وأوقَعَ
أربابَ التصرُّفِ في الحيرة، صاحبُ معرفةٍ وعلمٍ لدني. يذكر في كتابه هذا
مشاهداته مع روح رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً مشهداً في عالم
المثال والملكوت".

وعالمُ المثال هو عالمُ الرُّؤى، وعالمُ الملكوت هو عالمُ الرُّوح والملاتكة
ومعهم كلُّ المخلوقات القادرة على الإدراك بالحواس، وكلاهما عالمٌ غيب.
هذا التفسير يعكس على التصوُّف أفكارَ أفلاطون عن مفهوم العالم، فمن
ادَّعى في عالم المثال والملكوت مُعابنةً أو كلاماً مع روح رسول الله صلى
الله عليه وسلم لم يُقبَلْ منه ذلك، لأنَّ الرُّؤيا الصادقة ليست من هذا في
شيءٍ، والكلُّ يستطيع أن يرى رؤيا صادقة.

وكتابُ الإبريز مليءٌ بما يُعارض القرآنَ معارضةً صريحةً، ويلجأ إلى
التفسيرات الفلسفيَّة، ويتسترُ بحجاب الغيب من أجل تصويب هذه
الادعاءات التي لا تجني نفعاً لأحد، فما أسوأ محاولات هؤلاء المفسرين!

وانظروا الآن إلى حالي بعد قراءتي هذا الكتاب، فهل سأساندُ كتاباً أرى ما فيه مخالفاً للقرآن مخالفةً تامّةً؟ هل يُمكنُ لي أن أعتبره كتاب علم؟ أم أنني مُطالبٌ بتقديس مَنْ يظهرُ بمظهر مُفسّر القرآن وهو في حقيقة الأمر يُعرضُ عنه ويملؤه بالأباطيل؟ إنَّ المسلمين لم يصلوا إلى سوء الحال هذا من فراغ!

وننتقلُ الآن إلى المناظرة في الغيب.

الشيخ أفندي : معرفة أولياء الله بما يجري في الصدور حقٌّ وواقعٌ؛ يُقالُ له كشف الضمائر، وكشف ما في القلوب، والأمثلة على هذا كثيرة جداً في كتب التصوف من تراجم الأولياء وأحوالهم، وعلماء الغرب يثبتون أن مثل هذه الخوارق ظاهرة علمية.

وقراءة المكنون أي المخفي أو ما يُقالُ له التخاطر، يعرفه الناسُ بأسمائه كالشيء المعلوم، وقد شاهدَ العبدُ الفقير الكثير من هذا من شيخه وعاشه. أمّا أنت فتريدُ أن تصطنع لنفسك دليلاً من الآية الخمسين من سورة الأنعام، ثمَّ إنَّك عضوٌ في لجنة الفتوى!⁴⁷ إنِّي لأتعجبُ منك، وأتأسفُ لك، بل إنِّي أعيبُ عليك ذلك، فيا للأسفي لتأخر علوم القرآن بهذا القدر! ليس ما نحن فيه مضاداً للشرع، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم يُخبرنا عن الله تعالى في الحديث القدسي: "... فإذا أحببتُ عبدي العابد الزاهد كنتُ عينه التي يبصرُ بها، وأذنه التي يسمعُ بها، ولسانه الذي ينطقُ به، ويده التي يبسطُ بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يُبصرُ، وبي يسمعُ، وبي ينطقُ، وبي يبسطُ، وبي يمشي". فحالُ الوليِّ هو هذا المذكور هنا⁴⁸.

⁴⁷كنتُ في وقت المناظرة رئيساً للجنة الفتوى باسطنبول، وأنعمَ اللهُ تعالى عليَّ بأن جعلني في وظيفة الإفتاء منذ 17 شباط من سنة 1976 إلى سنة 1997، فالحمدُ لله حقَّ حمده.

⁴⁸كرامات الأولياء لأسعد جوشان (باسم مستعار خليل نجاتي أو في مقال افتتاحي في مجلة أغسطس 1992، العدد 108. كتبتُ هذه المقالة ردّاً على درسٍ ألقيناه في مسجد السليمانية. السيد الموقر جوشان أستاذ في الأدب الإسلامي، نقشبندي الطريقة، أحد شيوخ المشرب الخالدي. وتعرف هذه الطريقة أيضاً بجماعة إسكندر

بايندر : أنتم على صوابٍ في تأسُّفكم على مدى تأخُّر علوم الإسلام، أمَّا غياب علوم الإسلام وحلول البدع والخرافات محلَّها فما أنتم أنفسكم تعترفون به.

والمرحوم محمد زاهد كوتكو يذكر في كتابه "عقائد أهل السُّنَّة" الأحوال والأقوال الموجبة للكفر فيقول:

- الذي يُصدِّق مَنْ يدَّعي علم الغيب
- مَنْ ادَّعى معرفة موضع مالٍ مسروقٍ
- مَنْ ادَّعى أنَّ الجنَّ تأتيه بالأخبار، ومَنْ صدَّقه في ذلك، بل إنَّ الغيب لا يعلمه إنسٌ ولا جنٌّ، ولا أحدٌ إلا الله⁴⁹.

-ثمَّ انظروا الآن في حكم مَنْ يقول: "معرفة أولياء الله بما يجري في الصدور حقٌّ وواقعٌ". فعليكم بالمسارعة بالتَّوبة إلى الله تعالى.⁵⁰ وموضوع الكشف يأتي فيما بعد إن شاء الله.

الشيخ أفندي : أنت تتحدَّثُ دون أن تعرفَ معنى الغيب وأنواعه. الغيب المطلق لا يعلمه إلا الله تعالى، وإذا لم يُطَّلع اللهُ تعالى عليه أحدًا فلن يعلمه لا الأنبياء ولا الأولياء، أمَّا إذا أظهره لبعض أوليائه فإنَّه يعلمه، ويُخبرُ عمَّا يجري في القلوب وما يمرُّ بالخاطر وما يعلُّقُ بالقلب من نيَّةٍ

باشا امتداداً للمرحوم محمد زاهد كوتكو إمام مسجد إسكندر باشا. ومنذ ذلك اليوم صار الأستاذ جوشان وأعيان جماعته يأتون المسجد إلى الصَّفِّ الأوَّل قريباً من المحراب، وكانوا يزعجون من الوعظ الذي أنكره. ولم يكن إلى ذلك اليوم لدي خبرة كافية بالطرق والتَّصوُّف. فكانت كتابة جوشان الموقر هي السبب في اعتائني بالتصوف والطرق. والرسالة التي بين أيديكم نتيجة تلك المناظرات منذ بدايتها إلى ما بعد المزيد عليها. أمَّا المناظرات الأخرى فكانت فيما بعد.⁴⁹ عقائد أهل السُّنَّة لمرحوم محمد زاهد كوتكو، الأقوال والأفعال الموجبة للكفر، طبع، اسطنبول 1992 ص. 134.

⁵⁰ أسعد جوشان، يقول عن المرحوم كوتكو في صدر كتابه عقائد أهل السُّنَّة: "... ويعلم ما يدور في قلب الإنسان، ويجيب السائل قبل سائله، ويسعف المحتاج دون أن يذكر حاجته...". هذه الأقوال هي ذاتها التي عدها في الكتاب مكفرة لصاحبها.

وما يخفيه في قلبه ليس بغيبٍ مطلقٍ، فهو مما يمكن علمه لخواصِّ عباده، بل وحتى قراءته.⁵¹

بايندر: ما لا يعلمه إلا الله تعالى فهو غيبٌ مطلقٌ، فإذا علمه أحدٌ من خلق الله تعالى لم يكن غيباً مطلقاً أو مُقَيِّداً، كمن يعلم الآن ما يدور في نفسه من هؤلاء الجلوس أمامي وأنا لا أعلمه ؟ وما كان في قلوب المنافقين لم يكن غيباً مطلقاً لأنهم كانوا يعلمونه، أمّا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فكان لا يعلمه لأنَّ الآيةَ بيَّنت ذلك بوضوح، قال تعالى: « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ » (التوبة، 101/9).

الشَّيخ أفندي : إنَّك لا يمكن أن تنتهي إلى خلاصة موضوع ما وإلى حقيقته إذا لم تجمع تفاصيله وكلَّ شتاته الذي يمتُّ له بصلة، والإتيان بأيةٍ ما دليلاً والإعراض عن الآيات الأخر في الموضوع ذاته نقصٌ وقصورٌ وإجرامٌ وتهلكةٌ عظيمةٌ في الدين.

وفي الآية الخمسين من سورة الأنعام جاء قوله تعالى: « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » (الأنعام، 6/50). لكنَّ الآيةَ السَّادسةَ والتَّسعين من سورة يوسف جاء فيها قول يعقوب عليه السَّلام: « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ». ⁵²

بايندر: أنتم تتقصُّون أقوالكم بأنفسكم، إذ لو كان صحيحاً ما ذكرتم من قولكم: "وما يجري في القلوب وما يمرُّ بالخاطر وما يعلِّقُ بالنيَّةِ وما يخفيه الإنسانُ في قلبه ليس بغيبٍ مطلقٍ، فهو ممَّا يمكنُ علمه، بل وحتى

⁵¹مجلة الإسلام، أسعد جوشان (باسم مستعار خليل نجاتي)، أغسطس 1992، العدد

⁵²أسعد جوشان، تنمة ما كتب أعلاه.

قراءته". فلماذا وافق يعقوب عليه الصلّاة والسّلام على تسليم يوسف لإخوته بعد أن قرّروا إلقاءه في البئر؟⁵³
وهب أنّه سها عن ذلك، فلماذا لم يُنقذه من البئر بعد أن جاءه إخوة يوسف
بيكون وقد علم من قبل ما في قلوبهم؟

ولو فكّرتم في الآية 96 من سورة يوسف لعلمتم أنّها لا تصلح دليلاً
لمقالتكم هذه، وفي صدر السّورة يقصّ يوسف على أبيه رؤياه، ففهم أنّه
سيكون رسول الله وأيقن بذلك. قال تعالى: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. قَالَ يَا
بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (يوسف، 4/12-6).

وفُسِّرَت الكواكبُ الأحد عشر في الرُّؤيا بإخوة يوسف الأحد عشر،
والشَّمْسُ والقمرُ بأبويه وأبيه،⁵⁴ وبأنّه في يومٍ ما من المستقبل سيسجدون له
سجودَ تعظيمٍ وتقديرٍ، وكان يعقوب عليه السّلام ينتظر تحقّق رؤياه، قال
تعالى: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (يوسف، 96/12).
فالآية التي تستدلُّون بها على إمكانية معرفة الغيب هي نفسها التي تُزيّل
الشبهة التي بنيت عليها أفكاركم كما قلّت لكم سابقاً.
ذلك أنّ أقوالكم هذه تُوقِعُ عقولَ مريديكم في الحيرة الشديدة، فقد حضرتُ

⁵³ قال الله: «إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْغِبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ إِنِّي لَيخْرُؤُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» (يوسف، 8/12-13).

⁵⁴ تفسير الطبري 149/8، بيروت 1412هـ/1992 م

في مجلس بعض الحجاج بالمدينة المنورة وتكلمت فيه عن عدم إمكانية معرفة الغيب إلا لله تعالى، فقالت واحدة من المريدات: "هذا قولك أنت، أمّا أنا فأعرف أنّ شيخي عالمٌ بحالي حتّى في مضجعي، وبل يعلم كم مرّة أنقلب فيه".

الشيخ أفندي : تقدّم إلى الأمام وقال: "ألا يمكن أن يطّلع الله أحداً على الغيب فيعلمه؟ أليس الله قادراً على ذلك؟ وهل تشكّ في قدرة الله تعالى؟" **بايندر :** وهل من أمرٍ لا يقدر عليه الله؟ ولكن لا يجوز في مثل هذه الأمور أن يستدلّ بقدرة الله، لو شاء الله لأدخل النّبّي صلى الله عليه وسلم جهنّم، وأدخل الشيطان الجنة، أليس الله قادراً على ذلك؟ **الشيخ أفندي :** لا شك في هذا.

بايندر : لكنّ الله تعالى لن يفعل ذلك لأنّه أخبرنا أنّه سيُدخل الشيطان النار، ويبعث النّبّي صلى الله عليه وسلم المقام المحمود في الجنة،⁵⁵ يقول الله تعالى عالم الغيب والشهادة: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (آل عمران، 179/3). فإذا تبين هذا، فمن ذا الذي يستطيع أن يدعي ضده فيخالف قول الله تعالى؟

الشيخ أفندي : ولكنّ الله تعالى يقول في آيةٍ أخرى: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا» (الجن، 26/72-27). ولما كان أولياء الله تعالى ورثة الرسل وكانت أنباء الغيب تأتي الرسل، فكذلك تأتي أنباء الغيب إلى الأولياء.

بايندر : تلك الآيات تُبيّن كيف كان يأتي الوحي رسل الله تعالى، وعلينا أن نقرأ الآيات كاملة حتّى نفهمها جيّداً: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى

⁵⁵قال تعالى: « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَخْمُودًا» (الإسراء، 79/17).

غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. لِنُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أُنْبِغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» (الجن، 26/72-27).

وقد كان الشيطان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أخبرنا الله تعالى بقوله: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (الحج، 52/22).

وفي بعض كتب التفسير رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه في سبب نزول سورة الأنعام، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما نزل عليّ سورة من القرآن جملةً غير سورة الأنعام، وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن اجتماعها لها، وقد بعث بها إليّ جبريل مع خمسين ملكاً أو خمسين ألف ملك يزفونها أو يحقونها..."⁵⁶.
وعلى الرسول أن يكون واثقاً من أن ما يأتيه إنما هو وحي من عند الملك، وأن الشيطان لا يقدر على أن يخلط وسوسته بالوحي. وإحاطة الملائكة بالرسول صفوفاً أثناء إنزال الوحي هو في هذا المعنى، فهل يصح إذاً الإتيان بآية فيها ذكر صفة نزول الوحي لتجعل دليلاً في مسألة علم الإنسان الغيب؟

15. نزول الوحي على شيوخ الطرق الصوفية

أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا

⁵⁶ تفسير الفخر الرازي 4/471، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت

1420هـ/1999م

بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (مريم، 11/19).⁵⁷

والله تعالى يختار من بين عباده رسلاً لِيُبَلِّغُوا أَمْرَهُ إِلَى الْخَلْقِ، وجبريل عليه السَّلام هو الْمُخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِيُبَلِّغَ مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الرَّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَا أَحَدٌ يَرَى الْمَلَكَ حِينَ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ أَوْ يَسْمَعُهُ إِلَّا الرَّسُولَ فَقَطْ، وكلام جبريل حين كان خفياً عن النَّاسِ قِيلَ لَهُ وَحْيٌ. ويأتي الوحي بمعنى الإلهام أيضاً، لِأَنَّ الْإِلْهَامَ مَا يَقْدُفُهُ اللَّهُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِمَّا يَعْلَمُ بِهِ أَوْ يَشْعُرُ بِهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ خَفِيٌّ. وجاءت كلمة الإلهام في القرآن بكلا المعنيين، والأصل في الوحي أَنَّهُ أَوْامِرُ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ إِلَى رَسَلِهِ، فَإِذَا ذَكَرْتَ كَلِمَةَ الْوَحْيِ كَانَ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ، وَقَدْ انْقَطَعَ الْوَحْيُ بِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ آخِرِ الْأَنْبِيَاءِ فَأَعْلَقَ بَابُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ ارْتِبَاطُهُم بِالْوَحْيِ؛ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَقْتَضِي إِبْلَاحَ الْوَحْيِ إِلَى النَّاسِ جَمِيعاً، أَمَّا الْإِلْهَامُ فَإِنَّهُ أَمْرٌ شَخْصِيٌّ قَدْ يَحْصُلُ لِلْكَافِرِ كَمَا يَحْصُلُ لِلْمُسْلِمِ، فَلَا يَصِحُّ جَعْلُ ارْتِبَاطِ النَّاسِ بِهِ. وَسَنَتَعَرَّضُ لَهُ فِيمَا بَعْدَ.

الشَّيْخُ أَفندي : قَدْ يُوحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الشُّيُوخِ بَعْضَ الْأُمُورِ، أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْحَى إِلَى أُمَّ مُوسَى فَقَالَ: « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمَّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْبَيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » (القصص، 7/28)؟

المُرِيدُ : بَلَى، وَلَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ حَتَّى إِلَى النَّحْلِ، فَلَمَّا ذَا لَا يُوْحَى إِلَى الشُّيُوخِ؟ قَالَ تَعَالَى: « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (النحل، 68/6-69).

بايندر : أَلْفَاظُ الْوَحْيِ الَّتِي مَرَّتْ فِي الْآيَاتِ جَاءَتْ بِمَعْنَى الْإِلْهَامِ، أَيَّ أَنْ

⁵⁷المفردات، مادة: (وحي).

الله أشعرهم بما أراد أن يجعلهم يشعرون به فوجدوه في أنفسهم.
لقد دخلتم بتأويلاتكم هذه في متهاتٍ مُهلكة، إنكم تحاولون أن تنزلوا
أنفسكم منازل الرُّسل والأنبياء حتى تتمكنوا من ادعاء تلقّي الوحي لأنكم لم
تستطيعوا بأيّ شكلٍ من الأشكال أن تتصوّروا أنفسكم غير عالمين
بالغيب.

16. كون الولي وارثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

المُريد : الأولياء من عباد الله وهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.
الشيخ أفندي : أولياء الله هم ورثة الأنبياء، فما يجوز في حق الأنبياء
يجوز في حق الأولياء.

بايندر : يبدو أنكم لم تفهموا معنى وراثة الأنبياء، ومن المعلوم أنّ الرسالة
قديمًا لم تنقطع حلقاتها، فإبراهيم عمُّ لوط وأبو إسماعيل وإسحاق وجدُّ
يعقوب ويوسف بن يعقوب، وقد أرسل الله تعالى العديد من الرُّسل في
مكانٍ واحدٍ وفي زمنٍ واحدٍ.

مثلاً يحيى ابن زكريا، وهو أكبر من عيسى بعشرة أشهر عليهم الصّلاة
والسّلام وزكريا عليه السّلام الذي تكفّل بمريم عاشوا كلهم في القدس.
وقد انقطعت الرّسالة الإلهيّة بعد عيسى عليه الصّلاة والسّلام حتى بعثه
محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم.

ثمّ لم يكن الرُّسل يتصرّفون في أمر الرّسالة حسب الهوى، ولم يكن لهم
سلطانٌ بأن يأتوا بأيةٍ إلا بإذن الله تعالى، فوظيفة الرُّسل هي تبليغ ما
أوحاه الله إليهم بدون أيّ زيادة أو نقصان. ورسولنا محمد صلى الله عليه
وسلم من هؤلاء الرسل فهو مأمورٌ أن يبلغ ما أنزل إليه. كما قال الله
تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»
(المائدة، 67/5). وقال تعالى بياناً لوظيفة الرُّسل: «فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» (النحل، 35/16). وقال أيضاً: « وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ

إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»
(الأنعام، 48/6).

وقد أُغْلِقَ بابُ الوحي وانتهى عصر المعجزات، لأنَّ الرِّسَالَةَ قد خُتِمَتْ
ببعثة محمد بن عبد الله رسولاً للنَّاسِ كَافَّةً، وبالرَّغْمِ من ذلك فأنتم تدَّعون
تلقِّي الوحي من جهة، ثمَّ تُحاولون إظهاره بصبغ الكرامة من جهةٍ أُخرى.
وإذ لم تجرؤوا على ادعاء المعجزة قلمت بالكرامة، ثمَّ ها أنتم تقولون:
"الأولياء من عباد الله ورثة الأنبياء، وما يجوز للأنبياء يجوز للأولياء".
فالرجاء منكم أن تتفوقوا عند حدودكم.

17. المعجزة

معجزاتُ الرُّسُلِ حقٌّ، والمعجزةُ أمرٌ خارقٌ للعادة يظهرها الله تعالى على يد
مَنْ أرسله لهداية البشر تصديقاً له بدعوى النُّبُوَّةِ، ومعجزةُ رسولنا محمد
صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم.
فكُلُّ مَنْ قرأ القرآن علم بالضرورة أنَّ الذي جاء به رسولنا هو من عند الله،
ذلك أنَّ البشرَ لا يقدرُونَ على الإتيان بمثله، وهي مثل معجزة عيسى
عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ فكان يحيي الموتى بإذن الله، وخلق من الطِّينِ
كهيئة الطَّيْرِ وينفخ فيه ليكون طيراً بإذن الله، ومعجزة صالح عليه الصَّلَاةُ
والسَّلَامُ كانت خروج الناقة من الصَّخْرَةِ، وكلُّ هذا ممَّا يعجزُ النَّاسُ عن
فعله، وهي معجزاتٌ حسيَّةٌ انقطعت بانقضاء زمن الأنبياء الذين ظهرت
هذه المعجزاتُ على أيديهم فلم تكن خالدةً.
أمَّا معجزةُ القرآن فخالدةٌ، وتأثيرها باقٍ إلى يوم القيامة وفي كلِّ مكانٍ، فقد
تكفَّلَ اللهُ تعالى بحفظه بقوله: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»
(الحجر، 9/15). وعلى هذا فكلُّ إنسانٍ مُخاطَبٌ بالإيمان برسالة محمد
بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ومُطالبٌ بالعمل بها، فلا نبيَّ بعده.
فالعالمُ وارثٌ لرسالةٍ جاء بها النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وهي القيامُ بدعوة
النَّاسِ إلى القرآن الكريم.

18. حقيقة الكرامة

المُريد : وهل تقبلُ الكرامة أم تُنكرُها؟

بايندر : أنا لا أنكرُ الكرامة - وسنقف على موضوع الكرامة فيما بعد إن شاء الله_ وإنما أكره أن تُحرّف الكرامة عن أصلها وتُستعمل من قبل بعض الشيوخ لأغراضٍ سيئة ليجعلوا من أنفسهم أولياء مزعومين، فليست الكرامة التي تزعمونها سوى الاستدراج الذي يؤدي إلى الهلاك.

الكرامة في اللغة هي العزة والقوة، وهي ضدُّ الهوان والضعف؛ وقد أعطى الله تعالى هذه الكرامة لبني الإنسان كما قال تعالى: « **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** » (الإسراء، 70/17). فقد سخرَ الله سبحانه وتعالى الحيوان للإنسان ليحمله ومتاعه حيث أراد، ووهب الله للإنسان قوةً تُمكنه أن يصنع أنواعاً مختلفةً من وسائل النقل، وكذلك من أنواع الكرامات التي أعطاه الله تعالى للإنسان هي هدايته إلى الإيمان، فالإيمان هو أكبرُ نعمةٍ من نعم الله تعالى، لأنَّ فيها ضمانَ الأمن في الدنيا وفي الحياة الأبدية. قال الله تعالى: « **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** » (الأنعام، 82/6).

وقد بيّن الله تعالى مَنْ هم أكرمُ النَّاسِ عنده: فقال: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** » (الحجرات، 13/49). فأكرمُ النَّاسِ مَنْ كَثُرَتْ عندهم الكرامة، ونفهم من ترتيب الآية الكرامة على التقوى أنَّ الكرامة مُعلّلةٌ بالتقوى؛ فحيث كانت التقوى أعظمَ في نفس المسلم كانت الكرامة أكبرَ.

ولكنَّ الكرامة أصبح يُقصَدُ بها الأمورُ الخارقة للعادة، تظهر على يدي وليٍّ من الأولياء المزعومين، حتّى استوت الكرامة والمعجزة فقيل: هي أمورٌ خارقةٌ للعادة إذا ظهرت على يد نبيٍّ فهي معجزةٌ وإلا فهي كرامةٌ. وقد نَحَلَّ هذا التَّحريفُ لكلمة "الولي" فقيل لأولياء الشياطين أولياء الله زوراً

وبهتاناً. والحقيقة أن كل مؤمن ومسلم هو وليُّ الله كما قال تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ النَّبِيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (يونس، 62/10-64). وعلى هذه الآية فالكرامة هي عدم الحزن للمؤمنين، فقد أكرمهم الله بها، ومن أنواع الكرامة الخلاص من المصائب قال تعالى: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذُوَيْ عَدْلِ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» (الطلاق، 65/2-3).

والناصرُ لعباده المؤمنين هو الله تعالى، ينصرهم بالسُّنن الكونية التي أودعها الله في هذا الوجود، كما ينصرهم بخوارق العادات، فإذا نصر الله عبده بالخوارق قيل عنه كرامة لأنَّه أكرمه بالنُّصرة. والكرامة نعمة من الله تعالى، وكلُّ نعمة تستحقُّ الشُّكر عليها. ومن الكرامات ما قد يضلُّ بها الإنسان كالجمال والمُلْك والمنصب الشَّريف والجاه، فعلى الإنسان أن يسعى لإرضاء ربِّه تعالى، وليس أن يبحث عن الكرامة.

ونفهم من الآية السابقة أنَّ الله تعالى يكرم عباده المؤمنين في ساعات العُسرة بوجهٍ أو بآخر، فعلى الإنسان أن يعلم أن هذا إكرام من عند الله تعالى، وليس من عند نفسه فعليه أن يشكر ربِّه.

ولقد نَصَرَ اللهُ المؤمنين في غزوة بدر أثناء الصِّيق، فأرسلَ إليهم ملائكتَه وأكَّدَ في الآية أنَّ النُّصرَ من عنده سبحانه وليس من عند الملائكة، كما أخبر الله تعالى بقوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (الأنفال، 9/8-10).

ولا يحسبنَّ الذين ظهرتْ لهم الكرامات بأنَّهم قد وصلوا إلى هدفهم المنشود، بل عليهم أن يجتهدوا في العبادة ما داموا على قيد الحياة. قال

تعالى: « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » (الحجر، 99/15).

19. الاستدراج

معناه الإدناء والتقريب بالمخادعة، وتُستعمل في الاصطلاح بمعنى استجلاب إنسان بما يشتهيهِ لإيقاعه في الهلاك غير المنتظر، وهو يحسب أنه خيرٌ له. واقتضت حكمةُ الله البالغةُ ألا يوقع عبده في هذا الاستدراج حتى يُحذره منه قبل ذلك، قال تعالى: « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (التوبة، 115/9). وهؤلاء حين نظروا إلى ما بين أيديهم من النعم ظنُّوا أنهم على الحق، ولو أنهم فكروا في آيات الله الواضحات لَمَا وقعوا في ضلالهم. وهذا ما تصنعونه تماماً، إذ نظرتُم إلى الناس الملتفين من حولكم فقلتم، لو كنَّا على ضلالٍ لَمَا تبعنا كلُّ هذا الجمع من النَّاس، فلا ينبغي لكم أن تتخذوا بالكثرة.

فهذا "ماو" الرَّعيم الشُّبوعي الصِّيني كان قد جَمَعَ من الأتباع ما لم يجمعه غيره، ولكنَّه لن ينفعه جمعه يوم القيامة.

فما تملكون من إمكاناتٍ ماديَّةٍ، ومن أتباعٍ يستمعون إليكم، ويُظهرون لكم التَّقدير والاحترام، كلُّ ذلك جعلتموه دليلاً وشاهداً على كونكم على الحق، ولكنَّكم في واقع الأمر تترفِّعون عن الحق، وتعتقدون أنَّ ارتباطكم بشيخكم في أمور دنياكم وآخرتكم سينقذكم وينفعكم، وهذا هو الموضع الذي تُمسكون منه، فالرجاء منكم أن تستخدموا عقولكم، وأن تُفكروا فيما يقولُ اللهُ تعالى لرسوله صلى اللهُ عليه وسلم في هذه الآيات: « قُلْ إِنِّي لَا أملكُ نَفْسًا صَرًّا وَلَا رَشْدًا. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا. إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ .. » (الجن، 21/72-23).

فأنتم لن تكونوا ورثة النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم حتى تتعلموا القرآن الذي جاء به، وتقدِّموا للناس بيِّناً وواضحاً، لأنَّ هذه هي الوظيفة الوحيدة التي

بقيت لنا منه، أمّا أنتم فتأخذون بأقوال الأولياء والشيوخ الذين زعمتموهم وتجعلونها معايير تُفسّرون بها القرآن، فحالكم هذه خيرٌ ما يبيّنُها ويشرحها هو هاتان الآيتان: « وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » (الزخرف، 36/43-37).

وذكر الرحمن هو القرآن، وأنتم تعرضون عن الكثير من الآيات، ولكنكم تظنون أنفسكم في طليعة من هم على طريق الحقّ، فعليكم أن تعيدوا النظر في موضوع وراثة النبيّ وموضوع الذكر لخطر شأنهما.

20. العلم اللدني (علم الباطن)

يُستعمل العلم اللدني أو العلم الباطن بمعنى العلم الخاص الذي يُدعى أنّه يُنقل من عند الله تعالى، ويُدعى أنّ بعض الشيوخ يتلقون مثل هذا العلم، وهذا الادعاء هو الذي يحمل الناس على تقديسهم.

الشيخ أفندي : الشريعة تأمر السالكين بأن يبحثوا لأنفسهم عن شيخ عارف⁵⁸ بالطريق المعنوي حتى يوصلهم إليه.

بايندر: إن كنتم تعنون بكلامكم هذا أنّ الإنسان محتاج إلى أستاذ يُعلّمه طريق الحقّ، ويكون قدوة له، فهو صحيح، فكلّ إنسان يحتاج إلى مربّ، وحرفيّ ماهرٍ، وأستاذٍ في حياته.

الشيخ أفندي : الشيوخ أهل العلم حقاً هم ذو العلم الباطن الذي يؤتاه كلّ النّاس. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين؛ فأما أحدهما فبثنته، وأمّا الآخر فلو بثنته قطع هذا البلعوم"⁵⁹. فعلمنا هو هذا العلم.

بايندر : العلم الذي لم يُنقل عن أبي هريرة عمّن أخذتموه؟ كيف يكون علماً وليس له مصدرٌ ولا دليلٌ ولا سندٌ؟

⁵⁸ روح الفرقان، ج 2، ص 63.

⁵⁹ البخاري، العلم 42.

الشَّيْخُ أَفندي : في سورة الكهف قصَّة موسى مع الخضر، وفيها أنَّ موسى عليه الصَّلَاة والسَّلَام اعترضَ عليه لأنَّه لم يفهم الوجه الصَّحيح لتلك الوقائع، والخضر عليه السَّلَام حين كان صاحب علم لدي كان يقف على حقيقة الأمور، قال تعالى: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» (الكهف، 65/18). هذا هو العلم الباطن أو العلم اللدني.

بايندر : موسى عليه الصَّلَاة والسلام حضر مع الخضر ولم يكن عنده ذلك العلم، فكيف علمتموه أنتم؟ وما دليلكم على أنكم أوتيتم هذا العلم؟ الشَّيْخُ أَفندي : وقولُ أبي هريرة ما هو؟

بايندر : أين الدَّلِيل في قول أبي هريرة؟ أبو هريرة رضي الله عنه يقول: "حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين؛ فأما أحدهما فبثنتُهُ، وأما الآخر فلو بثننتُهُ قُطِعَ هذا البلعوم"⁶⁰ فإذا كان هذا العلم لم يُنقل فمن أين لكم إيَّاه؟

وانتبهوا، ففي صحيح البخاري حديثٌ طويلٌ ذو صلة بالخضر عليه السلام، ذكره مفيد لما فيه من توضيحٍ للموضوع. عن أبي بن كعب عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: "قام موسى النَّبِيُّ خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أيُّ النَّاسِ أعلمُ؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه أنَّ عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلمُ منك. قال: يا ربِّ، وكيف له؟ فقيل له: احمل في مكمل، فإذا فقدته فهو ثم. فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحملًا حوتاً في مكمل، حتَّى كانا عند الصَّخرة وضعا رؤوسهما وناما، فانسلَّ الحوت من المكمل فاتخذَ سبيلَه في البحر سرياً، وكان لموسى وقتاه عَجَباً. فانطلقا بقيَّة ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غدائنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. ولم يجدْ موسى مساً من النَّصبِ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمرَ به. فقال له فتاه: أرايتَ إذ أوينا إلى الصَّخرة فإني نسيْتُ الحوت. قال موسى: ذلك ما كنَّا نبغي، فارتدَّا على آثارهما قصصاً، فلما

⁶⁰البخاري، العلم 44.

انتهيا إلى الصخرة إذا رجلٌ مُسجى بثوبٍ - أو قال: تسجى بثوبه - فسلم موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟⁶¹ فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: هل أتبعك على أن تُعلمني ممّا علّمتَ رشداً؟ قال: إنك لن تستطيعَ معي صبراً. يا موسى إني على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ علمك الله لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ليس لهما سفينةٌ، فمرّت بهما سفينةٌ فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر فحملوهما بغير نول. فجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة. فنقر نقرَةً أو نقرتين في البحر، فعمد الخضرُ إلى لوحٍ من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير أجرٍ فعمدتُ إلى سفينتهما فخرقتها لتغرق أهلها! قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيعَ معي صبراً؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت. فكانت الأولى من موسى نسيانا. فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده. فقال موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيعَ معي صبراً... فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه. فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى، لو ددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما".⁶²

ويشدُّ انتباهنا في هذا الحديث قولُ الخضر: "إني على علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علمٍ علمك الله لا أعلمه". موسى عليه الصلوة والسلام رسولُ الله، ورسَل الله يُبلِّغون رسالاتِ الله التي

⁶¹ ووجه الاستفهام أنه لما رأى الخضر موسى عليه السلام في أرض قفر استبعد علمه بكيفية السلام. (عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري 161/2، مصطفى الباني الحلبي، مصر 1392هـ/1972م).

⁶² البخاري، العلم 44.

حَمَلُوهَا، من بيان طريق الحقِّ للنَّاسِ، ودعوتهم إليه. وهذه الآية تُبَيِّنُ هذا المعنى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا» (الأحزاب، 45/33-46).

وما يفعله الرَّسُولُ يستطيعُ أن يفعله أيُّ إنسانٍ، ولم يظهر من الرُّسُلِ أعاجيبٌ في حياتهم تُشبهُ ما كان من الخضر، وما ظهر على أيديهم من المعجزات إنَّما كان من أجل إثبات نبوتهم ورسالتهم.

والرُّسُلُ عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ لا يحتاجون إلى علم الخضر، ولنفهم هذا علينا أن نقرأ هذه الآيات التي تقصُّ علينا حقيقة الحوادث الثلاث التي مرَّت بنا: « قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَ هُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» (الكهف، 18/78-82).

والعبرةُ في هذه الحوادث من عدَّةِ وجوه، أهمُّها بالنسبة لنا هي التَّسْلِيمُ لقضاء الله تعالى والإيمانُ بعاقبة الأمور الحسنة لنا في نهاية الأمر، لأنَّ الكثيرَ ممَّا نكرهه يتبيَّنُ لنا بعد حينٍ كم كانت فائدته عظيمة! فالحكمةُ هي هذه، والحكمةُ هي وضعُ الشَّيءِ في محله، فإذا لم نفهم الحكمةَ من أمرٍ ما فليس علينا أن نحزن أو نياس.

ولا يوجدُ في رسلِ الله مثلُ هذه التَّصَرُّفاتِ لأنَّهم قُدوةٌ لأتباعهم في حياتهم، والخضر ليس ممَّن يُقتدى به في أعماله.

ولو أنَّ موسى عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ فعلَ الخضر ثم اقتدى به يهوديٌّ فقتلَ صديقاً زاعماً أنَّه كان سيُرْهِقُ أباه وأُمَّه، أو أنَّ رجلاً ما أخذَ مالَ غيره مُحْتَجًّا بأنَّ الصَّرْرَ كان سيلحقُ بماله، فهل كان سيبقى أمَّنْ وطمأنينةً بين

النَّاسِ؟

فكان كلُّ مَنْ تَظْهَرُ مِنْهُ غَرَائِبُ فِي تَصَرُّفَاتِهِ يَجِدُ فِي عَمَلِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مَا يَتَسَوَّرُ بِهِ لِيُقَدِّمَهُ حُجَّةً عَلَى جَوَازِ صَنِيعِهِ غَيْرِ
المَأْلُوفِ.

والحديثُ المذكورُ آنفاً يختمه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يرحم
الله موسى، لو ددنا لو صَبَرَ حَتَّى يُقْصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا". فهو يُبَيِّنُ بَيَاناً
واضحاً أَنَّ مَا فَعَلَهُ الْخَضِرُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَاتِ مَحْدُودُ السَّمَاتِ
والعَلَمَاتِ، مَوْقُوفٌ عِنْدَهُ، لَا يُتَعَدَّى بِهِ إِلَى غَيْرِهِ، فَهَذَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرَ شَيْءٍ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ.
وبعد انكشاف هذه الحقائق وفهمها، مَنْ ذَا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ عَلِمَ مَا عَلِمَهُ
الْخَضِرُ رَحِمَهُ اللَّهُ؟

21. المَكَاشَفَةُ لِلشَّيْخِ

المُرِيدُ : مَا يُتَعَلَّمُ بِوِاسْطَةِ الْإِلْهَامِ وَالْكَشْفِ يُقَالُ لَهُ عِلْمُ الْحَقِيقَةِ أَوْ
الْعِلْمُ اللَّذَنِي، وَهُوَ لَا يَحْصُلُ بِأَعْمَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَبِالتَّمَارِينِ الدِّهْنِيَّةِ،
وَلَكِنَّهُ يَقَعُ لِصَاحِبِهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ.

بايندر: فِي الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» (الكهف،

65/18). فَالْآيَةُ تَتَكَّرُ التَّعْلِيمَ، وَالْكَشْفُ وَالْإِلْهَامُ لَيْسَا طَرِيقًا لِلتَّعْلِيمِ.

المُرِيدُ : الْكَشْفُ فِي اللُّغَةِ الْإِظْهَارُ وَرَفْعُ الشَّيْءِ عَمَّا يُؤَارِيهِ وَيُغَطِّيهِ، وَفِي
اصْطِلَاحِ الصُّوفِيَّةِ هُوَ التَّوَصُّلُ إِلَى مَا وَرَاءَ حِجَابِ الْغَيْبِ مِنْ أَسْرَارِ
المَعَانِي وَحَقَائِقِ المَخْلُوقَاتِ.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ غَطَاءَ الْغَفْلَةِ إِذَا رُفِعَ عَنِ عَيْنِ الْإِنْسَانِ وَنَظَرَ فِي
الْكَائِنَاتِ بِبَصِيرَةٍ وَقَفَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْأَسْرَارِ الدَّقِيقَةِ، وَهَذَا فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ
حَدِيدٌ» (ق، 22/50)، وَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: "أَنْتَ الْيَوْمَ صَاحِبُ بَصِيرَةٍ تَنْظُرُ
بِهَا فِي الدَّقَائِقِ الْإِلَهِيَّةِ".

بايندر : ما هذه الآية بالمعنى الذي قدّمتموه، ولو أنّكم قرأتم ما قبلها وما بعدها لتبيّن بوضوح أنّها في أمر الحياة الآخرة، قال تعالى: « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ. وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقَيْتَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ. الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ » (ق)، (26-20/50).

فانظروا إلى هذه الآيات، فإنّكم لن تجدوا فيها أي صلة بالمعنى الذي ذكرتموه، ذلك أنّ هذه الآية لم يأت فيها إلا ذكر الآخرة فقط. وأنتم تجدون بين أيديكم كثيراً من الآيات والأحاديث البيّنات فتغضّون عنها الأنظار، ثمّ تأتون بآيات لا صلة لها بالموضوع وتحاولون أن تستنبطوا منها أدلّة لما تزعمونه.

22. الفراسة

المُرِيد: مرّ علينا قبل قليل حديثٌ قدسيّ؛ لم تجاوزته؟ يقولُ تعالى فيه: "إذا أحببتُ عبدي العابدَ الرَّاهِدَ كنتَ بصره الذي يُبصرُ به، وسمعه الذي يُسمعُ به، ولسانه الذي ينطقُ به، ويده التي يبطشُ بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يُبصرُ، وبي يسمعُ، وبي ينطقُ، وبي يبطشُ، وبي يمشي". ثمّ يصلُ به الحالُ إلى أن يتقطّطَ إلى ما لا يتقطّطُ إليه غيره، وأن يعلم إلى حدِّ قريبٍ من الصّواب ما يمرُّ بعقلٍ وخاطر الإنسان، فما هذا إذن؟ بايندر : هذه فراسةٌ، والفراسةُ الإصابتُ في الرّأي والتّخمين والتّصوُّر بالنّظر في تفاصيل الأشياء. وجاءَ في الحديث قولُه صلى الله عليه وسلم: "انقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظرُ بنور الله"⁶³.

وإذا ضمّمنا هذا الحديث إلى هذه الآيات استطعنا أن نفهمَ موضوعنا هذا

⁶³ الترمذی، تفسیر سورة الحجر 6

جِدًّا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (الأنفال، 29/8).

والحديثُ القُدسيُّ الذي ذكرتموه جاء فيه أنَّ الله تعالى قال: "... وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِن سَأَلَنِي لِأَعْطِيَتْهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَ بِي لِأَعِيذَتْهُ".⁶⁴

وهذا الحديثُ القُدسيُّ يشرحُ تلكَ الآياتِ السَّابِقةَ، وكلُّ مُؤْمِنٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ لَا بَدَّ وَأَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِ فِرَاسَةُ الْمُؤْمِنِ، وَلَكِنْ لَا أَحَدٌ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ أَشَدَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والقرآنُ يُبَيِّنُ بوضوحٍ عَدَمَ مَعْرِفَةِ الرَّسْلِ الْغَيْبِ، وَكَذَا مَا يُسَمَّى بِالْعِلْمِ اللَّدْنِيِّ أَوْ عِلْمِ الْبَاطِنِ، فَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا وَجُودَ لِهَمَا.

والذي يَتَّقِي اللَّهَ تَعَالَى فَيَعْمَلُ بِأَوَامِرِهِ، وَيَجْتَنِبُ نَوَاهِيَهُ يَدْرِكُ حَسَنَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَقَبِيحَ مَا نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ عَلَى عِلْمٍ بِمَا يَفْعَلُهُ، فَيَعْتَرِ بِإِيمَانِهِ.

ويعرفُ الحلالَ والحرامَ فَيَأْخُذُ طَرِيقَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ لَذا يُسْتَبَعَدُ أَنْ يَقَعَ فِي الْخَطَأِ، هَذِهِ هِيَ الْفِرَاسَةُ، وَهِيَ نَوْرٌ يُنِيرُ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ. فَهُوَ يَصْرِفُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَتَمَسَّكُ بِمَا يُرِيدُ اللَّهُ وَيَمْشِي حَيْثُ يُرِيدُ اللَّهُ، وَلَا يَكُونُ مَعْنَى حَدِيثِ: "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ" إِلَّا هَذَا الَّذِي تَكَرَّرَتْهُ.

وَلَا نَصِيبَ مِنْهَا لِعُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يَتَلَدَّدُونَ بِالْمَعْصِيَةِ، وَلَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ ضَيْقٍ أَوْ حَرْجٍ لِعُصِيَانِهِمْ اللَّهَ تَعَالَى.

وعَلَيْنَا أَلَّا نُبَالِغَ فِي مَوْضُوعِ الْفِرَاسَةِ وَنَتَجَاوَزَ حَدَّهَا، وَكَوْنِ الْمَرْءِ فَاضِلًا لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ عَلَى صَوَابٍ دَائِمًا، فَهَذَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَانَ قَدْ رَجَّحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْيَهُ فِي أَمْرِ تَمَّ تَبَيَّنَ لَهُ خَطْوُهُ فِيمَا بَعْدَ.

⁶⁴البخاري، الرقاق 83

يقولُ ابنُ عَبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما فيما يرويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "فلما أسروا الأسارى قال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم لأبي بكرٍ وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ قال أبو بكر: يا نبيَّ الله هم بنو العمِّ والعشيرة، أرى أن تأخذَ منهم فديةً فتكونَ لنا قوَّةً على الكُفَّار، فعسى اللهُ أن يهديهم للإسلام، فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: ما ترى يا ابنَ الخطَّاب؟ قلتُ: لا والله يا رسولَ الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكي أرى أن تُمكِّتًا فنضربَ أعناقهم، فتمكِّنَ عليًّا من عقيل فيضربَ عنقه وتُمكنني من فلان (الأخ الشقيق لعمر)، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكُفَر وصناديدها. فهوى رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلتُ. فلما كان من الغد جئتُ فإذا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلتُ: يا رسولَ الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإنَّ وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكيً لبكائكما. فقال رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم: أبكي للذي عرضَ عليَّ صاحبك من أخذهم الفداء. لقد عرضَ علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة. وأنزلَ اللهُ عز وجل: « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (الأنفال، 67/8-69)، فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم".⁶⁵

فهذا يعني أنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه لم يريا حقيقةً ما كان خفيًّا وراء الحادث لأنَّهما - مهما بلغا من العظمة- بشران، لا تمنعهما فضيلتهما من الوقوع في الخطأ، ومهما كان الإنسانُ صاحبَ علمٍ وفضيلةٍ فهو معرضٌ للخطأ، ويمكن انتقاده. وأنتم تُبالغون في هذه الأمور رغم أنَّها أمورٌ واضحةٌ، وتدعون معرفةَ حقائق الأمور وبواطنها مثل الخضر، وتعتبرون الاعتراضَ عليكم

⁶⁵مسلم، الجهاد، باب (18) الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم 58

كاعتراض موسى عليه الصلّاة والسّلام على الخضر، وتقولون إنّ موسى ما أدركَ بواطنَ الأمور، لذا اعترضَ على الخضر، هل أصبحتُم الخضر وتجعلون من يعترضُ موسى، ويلكم لا تفتروا على الله الكذب، عُودوا إلى رشدكم، يرحمكم الله.

23. الإلهام

الإلهامُ هو أن يُوقِعَ اللهُ في قلب العبد شيئاً،⁶⁶ ويُستعملُ الحدسُ بمعنى الإلهام أيضاً.

المُريد : هل تؤمنُ بالإلهام؟ فالإلهامُ موجودٌ غير أنّه لا يهْمُ الآخرين. **بايندر**: لا شكَّ في وجود الإلهام، ولو لم يكن الإلهامُ موجوداً لَمَا استطاعَ الإنسانُ المضىَّ في حياته، وكلُّ ما تعلّمه واكتشفه فباللهامِ اللهُ إيّاه، لكنّ الإلهامَ يستوي فيه المسلمون والكافرون، وليسَ خاصّاً بالمسلمين دون غيرهم. وهذه اللَّفظةُ لا تمرُّ في القرآن إلا في موضع واحد، قال تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» (الشَّمْس، 8/1-10). فالنَّفْسُ تُلْهَمُ النَّقْوَى كما تُلْهَمُ الفجور.

أ - إلهام الفجور

والفجور في مُفردات الرّاغب الأصفهاني شقُّ سترِ الدّيانة، وهو العصيان، أي أن يُعاملَ المرءُ اللهُ تعالى أو يُعاملَ نفسه أو النَّاسَ مُعاملةً سيّئةً. هذا، وهو قبل وبعد المعصية في حزن، يُقالُ له القلق الدّاخليُّ أو العذاب النَّفسيُّ.

والبرهان الذي صرّفَ يوسفَ عليه الصلّاة والسّلام عن "زليخا" لا بدُّ أن يكونَ من الله تعالى الذي يُلهِمُ النَّفْسَ فجورها وتقواها، قال تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

⁶⁶التفسير الكبير للفخر الرازي، 177/11، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت

وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ « (يوسف، 24/12).

والإنسان إذا أراد أن يقوم بمعصية يلهمه الله فجوره وتقواه فيشعر جلدّه، ثمّ إمّا أن يُعرض عنها وإمّا أن يقع فيها، والله تعالى من رحمته الواسعة يُحدّر عبده من المعصية قبل وقوعه فيها، وبعد إصابته المعصية يشعر بضيقٍ داخليّ يحثّه على التّوبة.

وأما إن كان من المُدمنين على المعصية فلا يُؤثّر فيه الإلهام قبل وقوعه فيها، بل يجد فيها لذّةً، وهذا مصداق قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (البقرة، 7/2)، وقوله تعالى: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» (فاطر، 35 / 8). وفاعل يشاء في كلتا الجملتين هو (مَنْ) وليس الله تعالى، تعالى عن الظلم، وأمّا بعد وقوعه في المعصية فإنّه يجد ضيقاً في نفسه، وهذا الشّعور هو رحمةٌ من الله إليه يحمله على التّوبة.

والآيات التي سنقرؤها تُبيّن أنّ هذا الاضطراب يحدث حتّى لغير المسلمين، ولننظر قبل ذلك في سبب نزولها: و النفر الذين آذوا رسول الله، وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأمّية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا: إنّ وفود العرب يجتمعون في أيّام الحجّ ويسألوننا عن أمر محمد، فكلّ واحدٍ منّا يُجيبُ بجوابٍ آخر، فواحدٌ يقول: مجنون، وآخر يقول: كاهن، وآخر يقول: شاعر، فالعرب يستدلّون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلةً، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسمٍ واحدٍ، فقال واحد: إنّه شاعرٌ، فقال الوليد: سمعتُ عبيد بن الأبرص، وكلام أمّية بن أبي الصلت، وكلامه ما يُشبهه كلامهما، وقال آخرون: كاهن، قال الوليد: ومن الكاهن؟ قالوا: الذي يُصدّق تارةً ويُكذّبُ أخرى، قال الوليد: ما كذّب محمد قط، فقال آخر: إنّه مجنونٌ، فقال الوليد: ومنّ يكونُ المجنون؟ قالوا: مُخيفُ النَّاسِ، فقال

الوليد: ما أخيف بمحمد أحد قط، ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته، فقال
النَّاسُ: صبا الوليد بن المغيرة، فدخل عليه أبو جهل، وقال مالك يا أبا
عبد شمس؟ هذه فريضة تجمع لك شيئا، زعموا أنك احتجبت وصبأت،
فقال الوليد: مالي إليه حاجة، ولكي يفكر في محمد فقلت: إنه ساحر،
لأنَّ السَّاحِرَ هو الذي يُفَرِّقُ بين الأب وابنه وبين الأخوين، وبين المرء
وزوجه ثم إنهم أجمعوا على أن يُلقبوا به محمد عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ثم
خرجوا فصرخوا بممَّة واجتمع النَّاسُ حولهم، فقالوا: إنَّ محمداً لساحر،
فوقعت الصَّجَّةُ في النَّاسِ أنَّ محمداً ساحر، فلما سمع رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذلك اشتدَّ عليه، ورجع إلى بيته محزوناً فتدنَّرت بئوبه، فأنزل الله
تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ».⁶⁷

فالوليد بن المغيرة كان يشعر بضيقٍ وشدةٍ تظهرُ عليه حين يتخذ القرار،
لأنه كان متلبساً بمعصيةٍ كبيرةٍ، وهذه الآياتُ تُبيِّنُ هذا: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ.
فَقَتَلَ كَيْفَ كَانَ. قَدَرَ. ثُمَّ نَطَرَ. ثُمَّ عَنَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَذْبَرَ
وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» (المدثر،
18/74-25).

كلُّ مَنْ خالف المسلمين شَعَرَ بالحرج وقلَّة الرِّاحة، لهذا يبدو عليه
الاضطراب في تصرفاته: «رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ»
(الحجر، 2/15). والكفَّار في ريبة: «لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (التوبة، 110/9).
وهذه الرِّيبةُ رحمةٌ من الله لهم حتَّى أنه قد رجَّع بعضهم إلى صوابه
وأعزَّض عن سوء أفعاله، والذي يقع في المعصية يلهم الضيق والنَّدَم من
الله تعالى ليقبل على التَّوبة، وهذا من رحمة الله الكبرى بعباده.

ب - إلهام التَّقوى

التَّقوى أَنْ تُجَنِّبَ نَفْسَكَ الْوُقُوعَ فِي الْمُنْكَرِ، ويجبُ على الإنسان تجنُّبُ

⁶⁷المرجع السابق، 696-697/10

المُنكر في معاملاته مع الله تعالى ومع النَّاس ومع نفسه، وبهذا يبتعدُ عن المساوئ في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، وهو يتحقَّق بالقيام بالطَّاعات واجتناب المعاصي.

ويرتاحُ الإنسانُ بالأعمالِ المؤدِّيَّة إلى التَّقوى ويشعرُ بالسَّعادة والاستقرار، وهذه السَّعادة وهذا الاستقرارُ كلاهما إلهامٌ من الله تعالى. كما نفهم ذلك من الحديث التَّالي:

عن وابصة بن معبد الأسيدي أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لوابصة: جئتُ تسألُ عن البرِّ والإثم؟ قال: نعم. قال: فجمَع أصابعه فضربَ بها صدره. وقال: استفتِ نفسك، استفتِ قلبك يا وابصة - ثلاثاً - البرُّ ما اطمأنتُ إليه النَّفسُ واطمأناً إليه القلبُ، والإثمُ ما حاكَّ في النَّفسِ وتردَّدَ في الصَّدر، وإن أفتاك النَّاسُ أو فتوك⁶⁸.

وفي حديثٍ آخر قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: 'دع ما يُريبُك إلى ما لا يُريبُك، فإنَّ الصِّدقَ طمأنينةٌ، وإنَّ الكذبَ ريبةٌ'.⁶⁹

وليس كلُّ ما يتولَّد في النَّفسِ إلهاماً، فالشَّيطانُ له وسوسته: «الَّذي يُوسوسُ في صدورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» (الناس، 5/114-6). وذكر اللهُ تعالى قولَ الشَّيطانِ بعد أن أمهله: «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» (الأعراف، 16/7-18).

فالشَّيطانُ يريدُ أن يُغويَ كلَّ النَّاسِ ويُبعدَهُم عن الصِّراطِ المُستقيمِ بما فيهم الأنبياء، قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (الحج، 52/22).

⁶⁸ سنن الدَّارمي، البيوع 2

⁶⁹ الترمذي، القيامة 60

وإذا أردنا أن نُميِّزَ بين الإلهام وبين الوسواس وجَبَ علينا أن نعرض ما نجده في أنفسنا على أوامر الله ونواهيه، فالنفسُ المُلَهَّمة هي هذه النفسُ، وكلُّ من نفس المؤمن والكافر نفسٌ ملهَّمة، فاللهُ تعالى يُلهمها فجورها، ويلهمها تقواها.

المُرِيد : ألا يوجد إلهامٌ آخرٌ غيرُ إلهامِ التَّقوى وإلهامِ الفجور؟
بايندر : بلى، فاللهُ تعالى يُلهمُ الإنسانَ الكثيرَ في قلبه، وقد مرَّتْ آياتٌ عن هذا في فصل الوحي، فهذا يقعُ لكلِّ النَّاسِ مؤمنهم وكافرهم، والشُّعراء والمخترعون مثالٌ على هذا.

24. الشَّفاعة

تأتي الشَّفاعةُ بمعنى طلب العفو من الله تعالى عن بعض المؤمنين يوم القيامة.

المُرِيد : نحنُ نعيشُ في وئامٍ تامٍّ مع الشَّيخِ المُحترم، ولعلنا قد نمسك بإزاره يوم القيامة، فلعله ينفعنا.

بايندر : تعنون أنه سيكونُ شافعياً لكم!

الشَّيخُ أفندي : ولمَ لا يكونُ كذلك؟ يقولُ الشَّيخُ الكبيرُ مصطفى عصمتُ غريب الله - وهو من كبار شيوخ الطَّريقة النقشبندية - قُدِّسَ سرُّه في رسالته القُدسيَّة: "عوذُ نفسك على الاستمداد من رجال السِّلْسلة أي السِّلْسلة النقشبندية إلى غاية أبي بكر رضي الله عنه. وكذا استعن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوسَّلْ بشفاعة شيخك فإنَّه سببُ سعادتك".
بايندر : من أين للشَّيخِ الإذنُ بالشَّفاعة؟ مَنْ هذا الشَّيخُ الذي فُوِّضَ إليه أمرُ الشَّفاعة؟

إننا نقرأ آية الكرسي دُبُرَ كلِّ صلاة فنقول: « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ». ولو أنكم عملتم لتتالوا رضا الله لكان خيراً لكم من أن تستعينوا برجال السِّلْسلة إلى غاية أبي بكر رضي الله عنه ممَّن لا يستجيبُ لكم إلى يوم القيامة، ثمَّ تحاولون عبثاً أن ترضوهم.

المُرِيد : نحن نعمل كلَّ شيءٍ إرضاءً لله تعالى، لأنَّ الله تعالى يقول: « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (التَّوْبَةِ، 72/9).

بايندر: وهل ينال رضا الله من يعمل بما يُسَخِّطُ الله؟ إنَّكم لا تستعملون عقولكم ولا تأخذون بالقرآن، والحال أنَّ الله قال: « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » (يونس، 100/10).

وأنصتوا إلى هذه الآيات وكأنَّها تُخاطبكم: « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَتَّبِعِ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْبَنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » (سبأ، 22/34-23). « وَأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » (الأنعام، 51/6).

ولا يملك الشَّافعون أن يشفعوا إلا في مَنْ أَدَبَنَ اللَّهُ تعالى أن يشفعوا فيه.

قال تعالى: « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ » (الأنبياء، 28/21).

أ - دفاع الشَّيخ عن مریده

المُرِيد : لم يكن التزامنا بشيخنا المحترم إلا لاعتقادنا شفاعته فينا. وحالنا مثل مَنْ يُوكَلُ مُحَامِيًا لِلدِّفَاعِ عَنْهُ، فَإِنَّهُ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ يَرِيحُ قَضِيَّتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُجْبِرًا عَلَى توكيله، وكذلك نحن مع شيخنا المحترم إذ هو محامينا.

بايندر: أَوْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ مِثْلَ الْقَاضِي، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ؟ قال تعالى: « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » (عبس، 34/80-37).

فإذا كان الحال هكذا يوم القيامة فكيف سيجدُ شيخُكم فرصةً ليحامي عنكم

فَيَنْقَذَكُمْ؟ عن خارِجَةَ بن زَيْد بن ثَابِت: «أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ - امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ بَايَعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ اقْتَسَمَ الْمُهَاجِرُونَ قِرْعَةً، فَطَارَ لَنَا عَثْمَانُ بن مَطْعُونٍ فَأَنْزَلَنَا فِي أَبِياتِنَا فَوَجَعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوفِّيَ وَعُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السَّائِبِ! فَشَهِدْتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ. وَاللَّهُ إِلَيَّ لِأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهُ مَا أُدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ - مَا يُفْعَلُ بِي. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا».⁷⁰

وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَصَلُّ بِكُمْ الْجُرْأَةَ إِلَى أَنْ تَدَّعُوا دِفَاعَ شَيْخِكُمْ عَنْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ وَلَا تَشْكُونُ فِي دُخُولِهِ الْجَنَّةَ. وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى - حَاشَ لِلَّهِ - سَيَنْسِي أَمْرًا مَا فَيُذَكِّرُهُ بِهِ شَيْخُكُمْ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُخْطِئُ فِي الْحُكْمِ فَيَسْتَدْرِكُ عَلَيْهِ شَيْخُكُمْ لِيَمْنَعَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْخَطَا. فَهَلْ تَبَيَّنَ لَكُمْ الْآنَ عَظَمَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَا؟

ب - تَوْسُطُ الشَّيْخِ بَيْنَ مُرِيدِهِ وَبَيْنَ اللَّهِ

المُرِيدُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُقَابِلَ مَسْئُولًا ذَا مَنْصِبٍ عَالٍ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَجِدَ مَنْ يَتَوْسَّطُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، ثُمَّ هَذَا الْوَسِيطُ يُبَلِّغُ طَلِبَاتِكَ إِلَى مَسْئُولٍ أَوْ حَاكِمٍ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِقَاؤُهُ إِلَّا بِوَسْطَةِ. فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْخَ هُوَ مَنْ يَقُومُ وَسِطًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى.

بَايَنْدَرُ : كَيْفَ تَجْرُؤُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الْقَوْلِ، وَهُوَ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» كَمَا أَنَّ أَقْرَبَ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؟

وَقَائِلُ هَذَا الْكَلَامِ قَدْ سَقَطَ فِي الشَّرِكِ، بَلْ إِنَّ الشَّرِكَ هُوَ اتِّخَاذُ وَاسِطَةٍ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ. وَفِي سُورَةِ الزُّمَرِ مَا يَشُدُّ انْتِبَاهَنَا إِلَى هَذَا: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

⁷⁰ البخاري، الجنائز 3.

زُئْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
كَاذِبٌ كَفَّارٌ» (الزمر، 3/39).

فالرجاء منكم أن تتركوا هذه المعتقدات الباطلة، فكثيراً ما يُضِلُّ بها
الشَّيْطَانُ النَّاسَ.

وَقُلْ لِي مِنْ فَضْلِكَ؛ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكَ وَيُطْعِمُكَ وَيُنْشِئُكَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ وَأَعْلَمُ
بِحَالِكَ مِنْ شَيْخِكَ أَمْ لَا ؟

المُرِيدُ : لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ أَقْرَبُ وَأَعْلَمُ .

بايندر : وما الذي يُمكنُ للشَّيْخِ أَنْ يَتَوَسَّطَ فِيهِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ؟
المُرِيدُ : !؟

25. الرِّابِطَةُ

بايندر: ثُمَّ إِنَّ فِيكُمْ شَيْءٌ تُسْمُونَهُ بـ "الرِّابِطَةُ".

الشَّيْخُ أَفندي : نَعَمْ صَحِيحٌ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الرِّابِطَةِ أَنْ يَتَخَيَّلَ المُرِيدُ
رُوحَانِيَّةَ المُرْشِدِ الكَامِلِ وَيَسْتَحْضِرُ صُورَتَهُ أَمَامَ عَيْنِي قَلْبِهِ، ثُمَّ يَسْتَعِينُ بِهِ
بِقَلْبِهِ.

بايندر: إِذَا كَانَ فَهْمِي صَحِيحاً، فَأَنْتُمْ تَقْصِدُونَ أَنَّ المُرِيدَ يَرَى شَيْخَهُ فِي
الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، وَيَرَاهُ صَاحِبَ عِدَّةِ تَصَرُّفَاتٍ أُذِنَ لَهُ فِيهَا، وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فِي
مَرْتَبَةٍ دُنْيَا، ثُمَّ يَتَخَيَّلُ شَيْخَهُ بَيْنَ عَيْنِي قَلْبِهِ، فَيَسْتَعِينُ بِهِ، وَهَذَا كُلُّهُ
يَصْنَعُهُ فِي غَيْبَةِ شَيْخِهِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

الشَّيْخُ أَفندي : انظُرْ جَيِّداً، نَحْنُ لَمْ نَبْتَدِعْ هَذَا الْفِعْلَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا،
يَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ خَالِدٌ فِي الرِّسَالَةِ الْخَالِدِيَّةِ: "أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الرِّابِطَةِ هِيَ
أَنْ يَنْظُرَ المُرِيدُ بِمَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مِنْ خَزِينَةِ خِيَالِهِ إِلَى وَجْهِ بَلِّ إِلَى مَا بَيْنَ
عَيْنِي رُوحَانِيَّةَ المُرْشِدِ، لِأَنَّ مَصْدَرَ الْفَيْضِ هُنَاكَ. ثُمَّ يَذُلُّ نَفْسَهُ وَيَضَعُ
مِنْ شَأْنِهَا أَمَامَ المُرْشِدِ غَايَةَ الصَّعَةِ مُتَضَرِّعاً وَمُتَّخِذاً إِيَّاهُ وَسِيلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ
اللَّهِ، ثُمَّ يَدْخُلُ فِي خَزِينَةِ خِيَالِ رُوحَانِيَّةِ المُرْشِدِ وَيُفَكِّرُ رُويَداً رُويَداً فِيمَا
يَنْزِلُ عَلَى قَلْبِهِ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَلَّا يَغِيبَ خِيَالُ شَيْخِهِ عَنْ عَيْنَيْهِ، شَاغِلاً

خياله بما يتعقُّبه ممَّا يفيضُ وينزلُ عليه إلى أن يرجعَ إليه وعيهُ".
بايندر: لا حول ولا قوَّة إلا بالله! هل تأتونَ بدليلٍ تعتمدونَ عليه في هذا؟
الشيخ أفندي: بلى، عندنا دليلٌ؛ فأبو بكر رضي الله عنه اشتكى إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه لا يجدُ مكاناً لقضاء حاجته، فرخصَ
له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.

بايندر: تعنون أنَّ أبا بكر رضي الله عنه - وهو يقضي حاجته - كان
يسترُ روحانيَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ويتخيَّلُ صورته أمامَ عيني قلبه
ويستمدُّ منه العونَ بقلبه؟

المريد: لا، ليس هذا. نحن نقصدُ أنَّ أبا بكر رضي الله عنه حتَّى وهو
يقضي حاجته كان لا يغيب عنه خيالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.
بايندر: خيالُ المحبوب في حال كان الحبُّ مُفرطاً فإنَّه لا يذهب عن
عيني المحب، وكذلك يصفُ الشَّاعرُ نفسه مع حبيبته التي لا تفارق خياله
وفكره ليلَ نهار، وهذا أمرٌ معقولٌ وواضحٌ جداً.

وأنتم تقولون إنَّ أبا بكر رضي الله عنه لا يغيبُ عن فكره رسولُ الله صلى
الله عليه وسلم حتَّى أثناء قضاء حاجته لفرط محبته إيَّاه. فالرَّابطة التي
عرَّفتموها، ما علاقتها بهذا؟

وتزعمون أنَّ روحانيَّة الشيخ تأتي المرید أثناء الرِّابطة، ومن أين تأتي
روحانيَّة الشيخ إلى المرید حتَّى يستعينَ بها؟

الشيخ أفندي: دليلُ ظهور الرُّوحانيَّة موجودٌ، كما نفهمُ ذلك من قوله
تعالى في سورة يوسف: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ»
(يوسف، 24/12).

وقد تحدَّث كثيرٌ من المُفسِّرين في تفسير هذه الآية عن قدرة الأولياء
وتصرفاتهم وإمداداتهم، من هؤلاء المُفسِّرين صاحبُ الكشَّاف - بالرَّغم
من ضلَّالته واشتغاله بأراء المعتزلة - فهو يذكرُ في معنى البرهان "أنَّه
مثَّل له (ليوسف) يعقوبُ عاصاً على أنملته وقال له: إِيَّاكَ وتلك المرأة".

بايندر : يبدو أنكم لم تقرأوا تفسير الكشاف أبداً، وإلا لما ذكرتم هذا الكلام مُطلقاً. ففي سورة يوسف بيان ما صنعت "زليخا" لتجتمع بيوسف عليه الصلاة والسلام: « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (يوسف، 24/12).

وبعد أن بيّن صاحب الكشاف المعاني المقصودة من كلمة «البرهان» المذكورة في الآية قال: وَفَسَّرَ البرهان بأنه سَمِعَ صوتاً: إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا، فلم يكثر له، فسمعه ثانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه حتّى مثل له يعقوب عاصاً على أمّته. وقيل صَرَبَ بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقيل: كلُّ ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف، فإنّه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم، وقيل: صيح: يا يوسف، لا تكن كالطائر كان له ريش، فلما زنى قعد لا ريش له. وقيل: بدت كفّ فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ » (الانفطار، 11/82) فلم ينصرف، ثم رأى فيها « وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » (الإسراء، 32/17) فلم ينته، ثم رأى فيها «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (البقرة، 281/2) فلم ينجع فيه، فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبيدي قبل أن يُصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل وهو يقول: يا يوسف، أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيز. وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحيي منه أن يرانا، فقال يوسف: إستحييت ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذوات الصدور؟ وبعد ذكر هذه الأقوال يقول صاحب الكشاف: وهذا ونحوه مما يُورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه".⁷¹

⁷¹الكشاف لمحمود بن عمر الرّمخري، 467/1، المطبعة الشرقيّة

كما أنكم لو فكرتم قليلاً لتبين لكم أيضاً أنّ هذه الأقوال تُخالف آيةً أخرى في نفس السورة؛ قال تعالى: « وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » (يوسف، 84/12).

حدّث هذا بعد أن جاء إخوة يوسف من مصر، وأوى إليه أخاه بعد أن اتهم بالسرقة، ولو أنّ يعقوب عليه السلام كان قد علّم بحال ابنه بنيامين أكان سيحزن عليه كلّ هذا الحزن؟ فالرجاء منكم ألا تأتوا بمثل هذا الافتراء لتستدلوا به على الرابطة، وحتى لا تُوقعوا أنفسكم في ضلالٍ أكبر. **الشيخ أفندي** : يقول فضيلة الشيخ عبيد الله الأحرار السمرقندي في تفسير قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » (التوبة، 119/9): لا شك أنّ كونك مع الصادقين يقتضي أن تكون معهم صورةً ومعنى، ثم فسّر المعية المعنوية بالرابطة والسعادة، حتى تبين لأرباب التصوّف أنّ هذا العمل المذكور مشروع.

بايندر : ماذا تقصدون بأن تكون مع الصادقين صورةً ومعنى؟ إنك إذا كنت تشارك شخصاً شعورك وفكرك تتبعه في سيرته فأنت معه، وإلا فإنك لست معه ولو كنت قريباً منه ببدنك، هذا هو الذي يفهم في هذا المقام، فما صلته بالرابطة؟

وبعض الشيوخ يُوزعون صورهم على مُريديهم ويأمرونهم بالنظر إليها أثناء ممارسة الرابطة، فهل تفعلون أنتم هذا؟ **المريد** : نحن لا نفعّل شيئاً من هذا، فقد حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم الصور.

بايندر : لو لم يُحرّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكنتم ستفعلون ذلك؟

المريد : ربّما فعلناه، لأنّ النّظر إلى صورة الشيخ أيسر من تخيله بعين القلب، وحينئذ يكون قد رأى صورة شيخه بعين رأسه. **بايندر** : ولو افترضنا أنّ التماثيل لم تُحرّم في ديننا أكنتم تصنعون لشيخكم تماثلاً تستعملونه في الرابطة؟

المريد : لكنّ التماثيل مُحَرَّمَةٌ.

بايندر : هَبْ أَنَّهُا لَمْ تُحَرَّمْ.

المريد : لعلنا كنّا سنفعلُ ذلك أيضاً ، ولربّما وُجِدَ في بيت كلِّ مريدٍ تماثيلُ شيخه.

بايندر : في هذه الحال إذا كان المريدُ سيقفُ أمام تماثيل شيخه ممارساً الرّابطة ومُستعيناً بروحانيّته، مُذلاً نفسه ومُتواضعاً له كلّ التّواضع، متضرّعاً إليه.

وماذا صنَع الذين عبدوا الأصنام غيرَ هذا؟ ارفع التّمثال وضع مكانه خيال الشيخ، فأَيُّ فرقٍ سيظهرُ لك؟ والذين عبدوا الأشجار والأحجار لم يكونوا ينتظرون منها قضاء الحاجات، وإنّما يسألون قضاءها بما تُمثّلُه من الرّوحانيّة.

ولعلّ هذه الآية تُبيّنُ لكم حكمَ هذه الرّابطة كما عرّفتموها بأنفسكم: « أَلَا لِلّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ » (الزمر، 3/39).

هذه الآية تُذكّرنا بمعنى الشّرك في القرآن.

26. العبادة

الشيخ أفندي : نحنُ لا نأمرُ النّاسَ بعبادتنا.

بايندر : الظّاهرُ من حالكم أنّكم لم تفهموا معنى العبادة بعد، فهلاً

أخبرتوني كيف يجبُ على المريد أن يكونَ بحضور شيخه؟

الشيخ أفندي : سأذكّرُ لك آداب المريد، وأُخرجُ أنت ما في قلبك من

اعتراض. على المريد أن يكونَ على هذه العقيدة:

أ. لا أبلغُ غايَتي إلا بشيخي الذي أرتبطُ به⁷².

ب. يحرمُ على المريد أن يعترضَ على شيخه⁷³.

⁷²كوتكو، الأخلاق الصوفيّة، 247/2

- ج. يُستقبح أن يعترض المريء على شيخه، كما فعل سيدنا موسى مع الخضر عليه السلام، ولا يُقبل عذر مَنْ يعترض، ما للاعتراض دواءً إلا الطرد، ومن أضرار الاعتراض أن يُحرّم المريء من الفيض المُتدفّق عليه.⁷⁴
- أ. ومن الشُّروط اللازمة للمريد ألا يؤول أو يُبطئ في طاعة شيخه، بل إنَّ التَّأويلَ والإبطاءَ سببان كبيران في الانقطاع.
- ب. ومن الآداب أيضاً، أن يجتنب ما لا يحبه الشَّيخ ولا يرضاه، وأن يتحلّى بأخلاقه الحسنة ودماعته.
- ج. وعليه أن يشغل قلبه بشيخه أثناء التلقين، وأن يصرف عن فكره كلّ شيءٍ، خيراً كان أو شراً.
- د. رأس مال المريء الصادق المحبّة والارتباط، وعليه بتر العناد والمخالفة من الأصل، وأن يظلّ تحت طاعة شيخه دائماً. والمريد الذي يزيد من ارتباطه بشيخه، ويزداد من محبة الطريفة يكون على ثقة من ثباته عليها.
- بايندر: إذا خلاصة القول أنّ المريء سيكون عبداً لشيخه، بل أدنى منه، لأنّ العبد ربما يعصي سيّده، ولو لم يستطع أن يُظهر عصيانه يُخفيه ويضمّره في نفسه، أمّا المريء فما هو إلا جسدٌ مسجى على خشبة الموتى أمام الشَّيخ، فإذا كحلّ المريء في طاعة شيخه ولم يهمس ببنت شفة لم يمسه خوفٌ من الطرد من الطريفة.
- الشَّيخ أفندي: على المريء أن يكون بين يدي شيخه وهو يتربّى كالميت بين يدي مُعَبِّله، بحيث يُعالجه شيخه مثلما يشاء.⁷⁵ وإلا فكيف للشَّيخ أن يُخلص إليه بما يجب فعله؟
- بايندر: حتّى الارتباط له حدوده، أمّا عندكم فقد جاوزتم الحدود كلّها، ولم

⁷³المرجع السابق

⁷⁴المرجع السابق

⁷⁵المرجع السابق

يوجد في الأنبياء من استعبد الناس كما استعبدتموهم باسم الدين، ولا يوجد أصل لما ترعمون في كتاب الله. قال تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ » (آل عمران، 79/3).

وقولكم إن اعتراض المرید على شيخه ليس له دواء يجعل لفظة العبودية غير كافية لأداء المعنى، فإن لم يكن هذا عبادة للشيخ، فما هو إذا؟
المرید : بالله عليكم! أين هذا من العبادة؟

بايندر: نعم، وليس العبادة فحسب، بل وحتى الاستعانة بغير الله تعالى من قبل الذين يقرؤون في الفاتحة كل يوم مرات ومرات « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ».

المرید : هذا اتهام عظيم منكم للذين يصلون الصلوات الخمس ويتهجّدون الليل، ويذكرون الله كل هذا الذكر، وبينون المؤسسات الدينية لخدمة الإسلام!

بايندر: أتظنونني ألقى هذه التهم جزافاً من تلقاء نفسي؟ أنا أدعوكم إلى آيات الله البيّنات، إن الأنفع لكم أن تشتغلوا بإصلاح أنفسكم بدلاً من أن توجّهوا إلي التهم، ولو فكرتم قليلاً لتبين لكم أنني أكبر صديق لكم، وأنا أحاول - ما استطعت - أن أنقذكم من الهاوية التي أوقعكم فيها كونكم لا تريدون أن تستمعوا إلى ما أتلو عليكم من الآيات البيّنات وما فيها من الأحكام وتعضّون عنها النّظر، بل وتتهونني عنها وكأنني أنا واضعها.
المرید: في الدنيا عدد كبير من الكافرين وأنت لا ترد عليهم، بل تهاجم المسلمين الذين يعانون من معضلة التفرق في أيامنا هذه. فماذا ستسفيد من تحطيمك إيانا ونحن نؤدّم للناس كل هذا القدر من أعمال الخير؟
بايندر: الكثير من الناس يشتغلون بالأعمال الحسنة في الحياة. واليابانيون والأمريكيون والأوروبيون الذين يصلون الليل بالنهار ويعملون من أجل خير الناس، والرهبان النصارى يغلّفون على أنفسهم صوامعهم على رؤوس

الجال ويُعرضون عن الحياة وعن الزَّواج والمال، ويتفرَّغون للعبادة فقط، هؤلاء لم يُنقذوا أنفسهم من الشِّرك. فنحنُ لا نستطيعُ أن نصوِّبهم لاعتقادهم في المسيح عليه الصَّلَاة والسَّلَام أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ تَعَالَى، ذلك أَن الاعتقادَ أمرٌ له شأنه الكبير، وإذا لم يعمل الإنسانُ عملاً يستحقُّ عليه الثَّواب ولم يُشرك بالله ثمَّ مات ولم يُثبِّ فإنَّ اللَّهَ قد يَغْفِرُ له ذنوبه، لأنَّه تَعَالَى قال: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا » (النساء، 48/4).

واللَّهُ تَعَالَى لا يقبلُ الشِّركَ ويقولُ لنبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم: « قُلْ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (الزمر، 64/39-67).

المُرِيد: أثبتت لنا الدِّعاءك هذا!

بايندر: أذكركم بقول الله تعالى الموجِّه لكل الأنبياء: « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (الزمر، 65/39).

أ - الشِّرك

المُرِيد: أين عملنا من الشِّرك؟ وما هي حقيقة الشِّرك؟

بايندر: استمع جيِّداً.

العبادة في اللُّغة الطَّاعة مع الخضوع.⁷⁶ والإنسان يميلُ إلى أن يستعبد مَنْ يقدرُ عليه، فإن لم يقدرُ على ذلك، مالَ إلى أن يكون هو نفسه عبداً.

⁷⁶لسان العرب لابن منظور، مادة: (ط و ع). الإطاعة مُشْتَقَّة من الطَّوع وخلافها الكره والاشمئزاز، قال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» (فصلت، 11/41). والطَّاعة مثلها، لكنها أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رُسم. (الراغب الأصفهاني).

وكثير من الملوك ينظرون إلى الشعوب وكأنهم عبيد لهم، ويريدونهم تحت طاعتهم دون أي شروط أو قيود، وقد ذُكر أمثال هؤلاء في القرآن؛ منهم فرعون، قال الله تعالى عنه: «فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» (النازعات، 23/79-24).

والرَّبُّ هو الصَّاحِبُ، وأصحابُ العبيد يُقالُ لهم أربابُ العبيد عند العرب.⁷⁷ والذين يرفضون أن يكونوا عبيداً لغير الله تعالى يرفضون أن يكون غيرُ الله رباً وسيّداً لهم. وكما يستعملُ معظمُ الملوك قوَّتهم السِّياسيةَ والعسكريَّةَ، والأغنياءُ أموالهم، فكذلك من النَّاسِ مَنْ يستعملُ الدِّينَ، كلُّ هذا لاستعباد النَّاسِ لأنفسهم، وشُرهم هؤلاء الأواخر، لأنَّه وأنتم تُعَيِّدون أنفسكم لله ولشيوخكم معاً، فيها أنتم تخضعون لروحانيَّتهم أثناء فعل الرِّابطة، والحالُ أننا نُعاهدُ الله تعالى ألا نُعبُدُ إلاَّ إيَّاه حين نقرأ قوله تبارك وتعالى في سورة الفاتحة: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

المريد : هل من الشيوخ مَنْ أراد أن يُعبد؟

بايندر : يبدو أن الشُّرُوح السَّالفة لم تكفكم، لقد ذكرتم أنه يجبُ على الذي يرتبط بشيخه تمام الارتباط أن يستعين به بقلبه وألاً يعترض عليه أبداً، حتى أنه لا بُدَّ من أن يكون كالميت في يدي مُغسِّله. أليس هذا أقصى العبودية؟ هل بعد هذا من عبودية؟

واللهُ تعالى يُريد من المخلوق ألا يكون عبداً لسواه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة، 21/2).

ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو أيضاً عبدٌ لله تعالى، ونحن نشهدُ بذلك في الإتيان بالشَّهادة في قولنا: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله". ولو أنزلناه منزلةً أعلى منها لشابهنا النصارى

⁷⁷ابتاع يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام كبيراً من كبراء مصر، وعشقته امرأته زليخا، قال تعالى: «وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (يوسف، 23/12).

الذين جعلوا عيسى بن مريم عليه السّلام ابناً وخلفاً لله فعبدوه واستعانوا به، وكأنه -حاش لله - ناب عن أبيه الذي تقاعد، فاستلم منه الملك. فكان الحاصلُ إذاً أنّه لا يُشترطُ أن يسجدَ أحدكم للشيخ كما يسجد للصنم ليُقَال إنّه قد اتخذهُ إلهاً.

ب - الاستعانة

المريد - ثم ماذا عن أمر الاستعانة؟

بايندر - الإستعانة طلب العون، وفي الفاتحة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». وقد مر هذا الموضوع سابقاً، ولكن لنأت بكلام الشيخ السالف: أما أنتم فقولوا ما شئتم أن تقولوا، وأما نحن فنؤمن باتخاذ أرواح الأولياء الكرام والمشايخ العظام وسائط بين الله وبين عباده، فنستعين بهم ونستمد من روحانيتهم، فإذا استعنتم بروحانية الأولياء، فهل يبقى معنى لترديدكم: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»؟
لم يبق من توحيدك شيء، لأنّ صنيعك هذا مهما كان فهو جزء من عبادة الشيخ.

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء مُحُّ العبادة"⁷⁸؟ وكذا: "الدعاء هو العبادة"⁷⁹؟ وكذلك الذين عبدوا الأصنام عبدوها لينالوا رضاها، وليقبل دعاؤهم.

والله تعالى يقص علينا في كثير من الآيات شرك المشركين بأنهم دعوا غيره⁸⁰، وقد أمر عز وجل نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن يقول: «قُلْ إِنَّمَا

⁷⁸ الترمذي، الدعاء 1، 3371

⁷⁹ الترمذي، الدعاء 1، 3372

⁸⁰ انظر الآيات التالية: النساء، 17/4؛ الأنعام، 40/6، 41، 56، 71، 108؛ الأعراف، 37/7، 194، 195، 197؛ يونس، 38/10، 66، 106؛ هود، 101/11؛ الرعد، 14/13؛ النحل، 20، 86/16؛ الإسراء، 56/17، 57، 67؛ الكهف، 14/18؛ مريم، 48/19؛ الحج، 12، 13، 62، 73/22؛ المؤمن، 117/23؛ الفرقان، 68/25؛ الشعراء، 213/26؛ القصص، 64، 88/28

أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا» (الجن، 20/72).

وابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: "دَعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ"⁸¹. وقد كان أساس دعوة الرُّسُلِ كُلِّهِمْ هو الدُّعَاءُ والعبادة لله وحده، لِأَنَّ النَّاسَ مِنْذُ الْقَدِيمِ قَدْ ضَلُّوا فِي ذَلِكَ.

وآيات الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالزَّكَاةِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ قَلِيلَةٌ جَدًّا، فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُ هُوَ فِي بَيَانِ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ وَاسْتِمْدَادَ النَّصْرِ مِنْ غَيْرِهِ عِنْدَ الصَّبِيحِ شَرِكٌ قَدْ حَرَّمَه، فَعَلَيْنَا أَنْ نَقْفَ عِنْدَ هَذَا الْأَمْرِ وَقَوْفًا خَاصًّا: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» (النمل، 62/27).

27. الزَّعْمُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِبَعْضِ الشُّيُوخِ الصُّوفِيَّةِ

يَأْتِي التَّجَلِّيُّ بِمَعْنَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ.

الشَّيْخُ أَفندي : يَقُولُ مُشِيرًا إِلَى جِبْهَتِهِ: "جِبْهَاتُ الشُّيُوخِ مِرَاةٌ، فِيهَا يَتَجَلَّى اللَّهُ تَعَالَى".

بايندر: وما دليلٌ هذا؟

الشَّيْخُ أَفندي : دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا (طور سيناء) وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» (الأعراف، 143/7). فَإِذَا تَجَلَّى اللَّهُ فِي جَبَلٍ، فَكَيْفَ لَا يَتَجَلَّى فِي بَشَرٍ؟
بايندر: حِينَ تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَسَقَطَ مُوسَى مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.
الشَّيْخُ أَفندي : فَالشَّيْخُ فِي مَقَامِ الْجَبَلِ، وَالْمُرِيدُ فِي مَقَامِ مُوسَى عَلَيْهِ

العنكبوت، 42/29؛ لقمان، 30/31؛ سبأ، 22/34؛ فاطر، 13، 14، 40/35؛
الصفوات، 125/37؛ الزمر، 38/39؛ المؤمن، 20، 66/40؛ فصلت، 48/41،
الزخرف، 86/43؛ الأحقاف، 4، 5/46؛ الجن، 18/72؛ فيكون مجموع الآيات
سبعًا وأربعين آية في ست وعشرين سورة.

⁸¹البُخاري، الإيمان 2

السَّلام.

بايندر: ما هذا الدليل؟ وما هذا القياس؟ ثم إنَّ الله تعالى لم يتجلَّ في الجبل، وإنَّما تجلَّى للجبل.
والآية السابقة تُبيِّن بوضوح أنَّ الله تعالى لا يتجلَّى للإنسان، أي لا يظهر له.

ولنفترض رغم مخالفة الآية أنكم على صوابٍ وأنَّ الله تعالى لم يتجلَّ للجبل، ولكن تجلَّى فيه، فكيف تقيسون أنفسكم بجبلٍ؟! هل يُشبه الإنسانُ الجبل؟ هذا قياسٌ مع الفارق، أي لا مُلازمةً بين المقيس والمقيس عليه، فمن أين لكم التشابه بينهما لتحملوا آيةً في جبل على إنسان؟

ولو افترضنا أنَّ تشبيهك صحيحٌ فقبلناه لوجبَ أن يندكَّ الشَّيخُ بعد تجلِّي الله تعالى له، لأنَّ الجبلَ جُعِلَ دكًّا بعد التجلِّي، وليس هذا حالكم، بل إنَّ جبهةَ الشَّيخِ تصيرُ كالمرآة لله تعالى بعد تجلِّيه، ثم يرى الجميعُ الله عزَّ وجلَّ في جبهة الشَّيخ.

الشَّيخُ أفندي : الله يحفظُ الشُّيوخ، وهو قادرٌ على ذلك. أليس كذلك؟
بايندر : الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولا يُعجزُه شيءٌ، لكنَّ حديثنا ليس عن قدرة الله، وإنَّما هو حكم الآية.

ثم إنَّ تجلِّيَ الله للجبل أمرٌ خاصٌّ وليس مما يُقاسُ عليه، لأنَّ القياس على أمرٍ خارقٍ للعادة لا يُخلَصُ منه إلى حكم.
ولا يُمكنُ الفهم على أيِّ أصلٍ اعتمدتم في قياسكم الشَّيخ على الجبل، والمريد على موسى عليه الصَّلاة والسَّلام؟ ولو أنكم شبَّهتم الشَّيخ بموسى عليه السلام لكان لهذا مخرجٌ ما، فكلاهما بشرٌ يشتركان في صفاتٍ بشريَّةٍ واحدة. أمَّا وجهُ الشَّبه بين الشَّيخ وبين الجبل فلم أفهمه؟!
المريد : لم تُسيءْ تأويل التَّجلِّي؟ ليس هذا إلاَّ مثلاً يُضربُ لفهم معاملة الشَّيخ مريديه.

بايندر: أي أنَّك تقصدُ أنَّ الله يحلُّ في بدن الشَّيخ؟

المريد : ليس هذا ما أعنيه أبدأ، أنا أتحدث عن كون الشيخ قدوةً لمريديه.
بايندر : أو لا بدُّ أن يظهرَ الله في جبهة الشيخ ليكونَ قدوةً لمريديه؟
الشيخ أفندي : ما بين عيني الشيخ مصدرُ فيضٍ، المريدُ ينظرُ أثناء الرابطة بخزينة خيال ما بين عينيه إلى وجه روحانية المرشد، بل إلى ما بين عينيه.

بايندر : الآن انكشف أمرُكم، وفهمتُ إلى ماذا تحتاجون حتى تثبتوا ادعاءكم أنَّ الله يتجلَّى في جبهة الشيخ، فأنتم حين ابتدعتم الرابطة وأردتم لها القبول عند الناس، أخذتم تحاولون إثبات بدعة أنَّ الله يتجلَّى في جبهة الشيخ لحاجتكم إليها، والخطأ يجركم إلى الخطأ.
ذلك أنَّ المريد أثناء الرابطة يتخيَّل روحانية الشيخ، ويُعكِّر فيما بين عيني شيخه، أي وسط جبهته، لأنَّ هناك مصدر الفيض كما تزعمون، ثم يتنزل إلى أبعد الحدود بين يديه، ويتضرَّع إليه، ويتوسَّل به إلى الله تعالى.
فهناك شعرتُم بالحاجة إلى القول بمرآة جبهة الشيخ وظهور الله فيها، وإلا فكيف ستجعلون مريديكم يصدِّقونكم فيه؟
بل وذهبتُ بعضُ كتب التَّصوُّف إلى القول بتجلِّي أسماء الله وصفاته في الشيخ. فكيف يمكنُ قبولُ هذا؟ وهذا الرَّأي المُشترك بين جميع الطُّرق الصُّوفيَّة وأنتم منهم، تدعون بهذه الأفكار التافهة.

28. اللباس

المريد : أنتَ تقولُ ما تقوله، وفي نفس الوقت تلبسُ لباسَ غير المسلمين!
بايندر : لا يوجدُ في القرآن ولا في السنَّة ولا في كتب الفقه ما ينصُّ على زيِّ مُعيَّنٍ في لباس الرَّجل أو المرأة، ولم يقلْ به أيُّ مذهبٍ من المذاهب الفقهيَّة، وليس بين أيدينا ما يدلُّ على أنَّ المسلمين تميَّزوا في لباسهم عن غيرهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يؤمر أحدٌ من المسلمين بأن يُخالِفَ لباسه لباسَ غيرهم، فما كان يلبسه أبو جهل وأبو لهب كان يلبسه أبو بكر و عمر، وكلامكم في هذا زعمٌ باطلٌ لا يستندُ

إلى أيّ دليل.

إذا كانت الملابس تختصّ بالجندي أو الشرطي أو أصبحت رمزاً للكفر فلا يجوز ارتداؤها، وكما أنّ ملابس الجند والشرطة تتغيّر عبر الزمان، فكذلك الملابس الخاصة لغير المسلمين تتغيّر على مرّ الأيام. وفي كتب الفقه أحكامٌ خاصّةٌ لهذه المسائل.

وظهرت هذه العلاماتُ المُميّزةُ للحاجة إليها، ففي المجتمع المسلم يستطيع غيرُ المسلمين أن يشربوا الخمر وأن يأكلوا الخنزير، بل وأن يربوه أيضاً، وإذا رأيتم مسلماً يشرب الخمر أمكنكم رفعُ أمره إلى القاضي، أمّا إذا كان نصرانياً لم يجز ذلك.

وحتّى لا تختلطُ الأمورُ في دولة الإسلام اقترحوا على غير المسلمين زياً يُميّزهم من غيرهم ليعطي لهم ذلك حريةً أكبر، ولو أنّ مسلماً لبس في ذلك العصر لباساً مثابهاً للباسهم لكان غاشياً للمسلمين، كالذي يلبس في أيامنا هذه ملابس الجند أو الشرطة، وليس في كتب الفقه عن اللباس إلا ما كان من هذا النوع من الزيّ الخاصّ لغير المسلمين.

28. على الشّيخ أن يكون معلماً

بايندر : ما الذي يمنعكم أن تكونوا مثل سائر المسلمين في معاملاتكم وعباداتكم؟ ما الذي حملكم أن تجعلوا أنفسكم وسطاء بين الله وبين عباده؟ الشّيخ أفندي: ألم يقل الله: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"؟

بايندر : بلى، فلا بدّ من أن يحترم المرء شيخاً ومعلماً، لأنّ الشّيخ الجيّد معلّم جيّد، عليه أن يتعاهد علمه دائماً ويعلمه لغيره ويعمل به ليكون قدوةً للنّاس، ولكن من أين لكم بتلك المقامات المعنوية التي ابتدعتها لأنفسكم بين الله وبين عباده؟

المُرِيد : تقديراتُ الأشخاص تختلف، فنحن نرى شيخنا بشراً، ولكنه ليس كسائر البشر، وهو يختلف عن الآخرين.

29. انتشار الإسلام

المريد : أنت تحتقر الطرق الصوفية، وقد انتشر الإسلام بواسطتها. والعالم الكبير محمد حميد الله حين رأى انتشار الإسلام بالصوفية أعرض عن فكره المعارض لها. فماذا ستستفيد إذا أرحت الطرق الصوفية من طريق الدعوة؟

بايندر: لا بد أن يكون العالم الكبير حميد الله قد قصد ما ليس مخالفاً للقرآن في الطرق الصوفية، وإذا كنتم تذكرون، فقد قلنا في بداية حديثنا: "نحن لم نعارض إلا ما وجدناه مخالفاً للقرآن مخالفة واضحة، ولو كان فيكم ما يخالف آراء مذهب من المذاهب الإسلامية كالحنفي أو الشافعي أو المالكي أو الأشعري أو الماتريدي ما كنا لننكر عليكم شيئاً. ولو أنكم خالفتم أحاديث غير متواترة لما ناقشنا في معارضتكم إلى هذا الحد كله. ولكنكم تذهبون إلى ما يخالف القرآن الكريم مخالفة واضحة. ولا يمكن السكوت مع هذه المخالفة إلا لشيطانٍ أخرس".

المريد : من ذا الذي يخالف نصوص القرآن المحكمة؟

بايندر: تعالوا نرجع إلى البداية، فقد قلتم هذا في بداية كلامكم ثم حين استعرضنا المسألة بشكلٍ موضوعيٍّ تبين مدى مخالفتكم للقرآن. وما فائدة نشر الإسلام بما يخالف القرآن من الأفكار الباطلة والمزاعم الخرافية؟

30. الأحاديث النبوية

الحديث هو أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته.
المريد : قلت من قبل: "ولو أنكم خالفتم أحاديث غير متواترة لما تمادينا في معارضتكم إلى هذا الحد كله". فهل يعني هذا أنك لا تقيم للأحاديث وزناً؟

بايندر: لا، فأنا أعترف بمكانة الحديث في الإسلام، ولكن الأحاديث تختلف درجاتها من حيث الصحة والضعف، ولربما كان الحديث صحيحاً إلا أن فيه علة، والحديث الذي ثبت أنه من النبي صلى الله عليه وسلم بأن رواه جماعة من كل طبقة يُقال عنه منواتر. يقول أحمد نعيم: إن

المتواتر قليل جداً، وإنه لم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم إلا أربعة من جهة المعنى واللفظ".⁸² ولا شك أن عدد هذه الأحاديث الثابتة بطرق متعددة قليل جداً، والأحاديث غير المتواترة فيها شيء من الشبهة، وهذه الشبهة إما في السند وإما في المتن بسبب معارضتها لأحاديث أخرى صحيحة.

والأحاديث التي وصلتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءتنا عن طريق الرجال الذين يجب أن يكونوا عدولاً وأهل ضبط جيد. وبعض المذاهب تقبل الأحاديث التي بلغتها إذا وافقت على أصولها التي وضعتها، لهذا ترون المذاهب تأخذ حديثاً وترد آخر، وأحياناً تجد مذهباً يقبل الحديث الذي ضعفه مذهب آخر.

وعلى سبيل المثال: المذهب الشافعي يشترط في الإناء الذي ولغ الكلب فيه أن يُطهر مرة واحدة بالتُّراب وسبع مرّات بالماء مُستدلاً بحديث: "طهور إناء أحكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرّات أولاًهًن بالتُّراب"⁸³. وكذلك المذهب الحنبلي، أمّا بقية المذاهب فهي على خلاف ذلك.

المُرِيد : ولكن ماذا عن هذا الحديث؟ صحيح هو أم لا؟ لأنّ الحنفية يكتفون بغسل الإناء ثلاث مرّات.

بايندر : هذا الحديث صحيحٌ وموجودٌ في الكتب الستة الصحيحة، حتى أنّه يُذكر في مواضع كثيرة من سنن الدارمي ومسنده أحمد بن حنبل. والحنفية والمالكية يرون صحّة هذا الحديث.

المُرِيد : فلماذا لم يأخذ الحنفية بهذا الحديث الذي يكاد يوجد في كلّ كتب

⁸² مقدمة مختصر شرح صحيح البخاري لأحمد نعيم، نسخة مترجمة إلى التركية، 103/1-105، أنقرة 1979م.

⁸³ البخاري، الوضوء 33؛ مسلم، الطهارة 89، 91-93؛ أبو داود، الطهارة 37؛ الترمذي، الطهارة 68؛ النسائي، الطهارة 50-52، المياه 7-8؛ ابن ماجه، الطهارة 31؛ الدارمي، الوضوء 59؛ أحمد ابن حنبل 2/245، 253، 265، 271، 341، 360، 398، 424، 427، 480، 482، 508، 86/4، 56/5.

الحديث الصحيحة؟ أيعقل مخالفة الحديث الصحيح؟

بايندر : هو صحيحٌ حقاً، ثابتٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه لم يقع الإجماعُ عليه، أي أنّ الذين عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصدر عنهم إجماعٌ من قولٍ أو فعلٍ على وجوب غسل ما ولغ فيه الكلبُ مرّةً بالتراب وسبعاً بالماء .

وما زال الفقهاءُ يختلفون في هذه المسألة؛ و بأيّ ظروفٍ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث؟ وهل ما زالت تلك الأسبابُ باقية؟ وهل وقع منه صلى الله عليه وسلم ما يخالفه من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ من أجل ذلك ترك بعضُ الفقهاء العملَ به؟ وقد تعب من أراد الاستقراءَ في مثل هذه المسألة.

و أقوالُ الحنفيةِ في مسألة تطهير ما ولغ فيه الكلبُ من إناء يمكن تلخيصها على النحو التالي: "... وهو قولُ النبي صلى الله عليه وسلم إذا ولغ الكلبُ في إناء أحدكم فليغسله سبع مرّاتٍ إحداهن بالتراب... في بداية الإسلام لقلع عادة الناس في الإلف بالكلاب، كما أمر بكسر الدنان ونهى عن الشرب في ظروف الخمر، فلما تركوا العادة أزال ذلك كما مر في الخمر، دل عليه ما روي في بعض الروايات فليغسله سبعاً أولاًهن بالتراب أو أخراهن بالتراب، وفي بعضها وعقروا التامة بالتراب، وذلك غير واجب بالإجماع... وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا استيقظ أحدكم من منامه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإنه لا يدري أين باتت يده، أمر بالغسل ثلاثاً عند توهم النجاسة فعند تحققها أولى، ولأنّ الظاهر أن النجاسة لا تزول بالمرّة الواحدة، ألا ترى أنّ النجاسة المرئية قط لا تزول بالمرّة الواحدة، فكذا غير المرئية ولا فرق سوى أن ذلك يرى بالحس وهذا يعلم بالعقل، والاعتبار بالحدث غير سديد، لأنّ ثمة لا نجاسة رأساً، وإنما عرفنا وجوب الغسل نصّاً غير معقول المعنى، والنص ورد بالاكْتفاء بمرّة واحدة فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرّة وقال هذا وضوءٌ لا يقبل الله الصلاة إلا به، ثمّ التقدير بالثلاث عندنا ليس

بلازم، بل هو مُفَوِّضٌ إلى غالب رأيه وأكبر ظنِّه".⁸⁴
فالحديثُ الذي اعتمده الحنفيةُ ضعيفٌ،⁸⁵ لكنهم أخذوا هذا الحديثَ لأَنَّهُ
يوافقُ مذهبهم.

المُرِيدُ : عَجِيبٌ جَدًّا!

بايندر : والأعجبُ منه آراءُ المالكيةِ، فمالك لم يكن يشترط أن يُغسَلَ الإِنَاءُ
الذي يلغ فيه الكلبُ، وسُئِلَ عن هذا الحديثِ فكان جوابه أن قال: "قد جاء
هذا الحديثُ وما أدري ما حقيقته؟"⁸⁶

المُرِيدُ : أهذا قوله؟

بايندر : نعم، ولهذا أريدُ أن أشرحَ هذا الأمرَ، إِنَّ اللهَ قد جَعَلَ القرآنَ الكريمَ
هو النصَّ الوحيدَ المحفوظَ الذي يرجع إليه المسلمون في منازعاتهم، وكذا
السُّننَ العمليَّةَ كأوقاتِ الصَّلواتِ الخمسِ وركعاتها وكيفية أدائها مما بلغنا
دون شبهة في النقل، كل هذا متواتر لا يصحُّ الجدلُ فيه، وكذلك ما بلغنا
بهذا الطريق من الحلال والحرام، وأمَّا غير هذا فيقع فيه الخلافُ بينهم.
المُرِيدُ : تعني إذاً أن ما عدا ذلك كلُّه يجوزُ للفقهاء الاختلافُ فيه على
حسب اجتهادهم؟

بايندر : دون شكِّ، فلمسلمين هذا المجال العلميُّ الرَّحْبُ إذا لم يتعدوه،
ولنكمل مسألةَ غسلِ الإِناءِ الذي ولغ فيه الكلبُ، هذا الحديثُ صحيحٌ،
ولكنَّ اللهَ تعالى قال في شأن الكلب: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ
تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ
وَآتُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ» (المائدة، 4/5).

والكلبُ يعضُّ حيوانَ الصَّيْدِ، ويصلُ إليه لعابه حتماً، والآيةُ حين لم تأمر
بغسلِ الموضعِ الذي أمسَكَ به الكلبُ ظهر أن أقرب الآراءِ إلى الصَّوابِ

⁸⁴ بدائع الصنائع لعلاء الدين الكاساني، 87/1-88، بيروت.

⁸⁵ نصب الرأية لتخريج أحاديث الهداية لعبد الله بن يوسف الزيلعي (-762هـ)،

132/1-133، القاهرة.

⁸⁶ المدونة الكبرى، مالك بن أنس 5/1، مصر.

رأي المالكية وإن كانت فيه مخالفة تامّة للحديث المذكور.

31. المذاهب

المُريد : قد ذكرت أنّ ما في الطرق مما قد يخالف بعض الاجتهادات كالحنفيّة أو الشافعية أو المالكيّة أو الأشعريّة أو الماتريديّة لا تتعقبه، فهل يعني هذا أنّك لا تُقدّر المذاهب؟

بايندر : المذهب هو رأي عالم وتفسيره في موضوع ما، واليوم حين نذكر المذهب نقصد به مجموعة من الآراء الفقهيّة التي يتبعها العلماء معتمدين منهجيّةً واحدةً، وحيثما كان العمل العلمي كان المذهب، وعدم الاهتمام بالمذهب يعني عدم الاهتمام بالعمل العملي، وأنا لا يُظنُّ بي مثل هذا الفكر، وإنّما أريد أن أوكدّ على ما يقتضي عدم تقديس العلماء وعلى عظمة الحرّيّة العلميّة.

وليس الخلاف بين المذاهب خلاف تضاد، بل هو سبب توسع وتقدم إذا كنّا لا نفرط في القرآن الذي نحكمه فيما بيننا، وإلا فإنّه يجب التسامح في المواضيع التي لا يقع أصحابها في مخالفة النصوص القرآنية المحكمة، قال الله تعالى:

«مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»
(الفتح، 29/48).

- وقال: «فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (المائدة، 54/5-56).

33. الاجتهاد

الاجتهاد في اللّغة: مُشتقٌّ من مادة: (ج هـ د) بمعنى: بذل الجهد (بضم الجيم) (وهو الطّاقة) أو تحمّل الجهد (بفتح الجيم) وهو المشقّة. وصيغة "الافتعال" تدلُّ على المبالغة في الفعل. وعلى هذا فالاجتهاد هو استقراغ

الوسع في أي فعلٍ كان، ولا يُستعمل إلا فيما فيه كلفةٌ وجهدٌ.
وفي اصطلاح الأصوليين، فقد عبّروا عنه بعبارةٍ متفاوتةٍ، لعلَّ أقربها ما
نقله الإمام الشوكاني في كتابه "إرشاد الفحول" في تعريفه بقوله: "بذلُّ
الوسع في نيل حكمٍ شرعيٍّ عمليٍّ بطريق الاستنباط".
المُرِيد : المذاهب لم تترك شيئاً إلا وبيّنته، وما علينا إلا فهمه والعمل به.
بايندر : كانت هذه الفكرة منتشرةً جداً حتى قبل سنين ، يُدافع عنها
بالنفس والنفيس، وما زال إلى الآن من يحنُّ إليها، ولكنّها حين لم تجد
مُعتمداً صحيحاً لها أخذت في الضعف والانقراض.
والمذاهب تعرّضت لكلِّ شيءٍ، وعلماء المذاهب أفتوا في المسائل التي
يترددون فيها ورأوا الحاجة إليها على ضوء القرآن والسنة، وهذا بالنظر إلى
الظروف الطبيعيّة المحيطة بهم من أسباب ونتائج، فاستنبطوا أحكامها
الشّرعيّة من القرآن والسنة.
وهنا تبدو أهميّة معرفة الظروف المحيطة، ومدى الثقة بمصادر العلماء
المستنبطين والظروف الخاصّة التي تُحيط بالمجتهد، لذا تجدون أنّ العالم
يقولُ في مسألةٍ واحدةٍ بحكمين مختلفين لاختلاف الظروف، وهذا أمرٌ
سويٌّ، فإذا تغيّرت الأحوال تغيرت معها أحكامها، لذا أولت المذاهب شأناً
كبيراً لتغيّر الزّمان والمكان.
ولم يكن يخطرُ ببال أحدٍ نسج القماش أو البناء أو المواصلات في
ظروف مئة سنة من قبل، ولكن قد يطلع علينا من يدافع عن اجتهاداتٍ
صدرت قبل ثلاثمئة وألف عام (1300) في ملابس مدينتي الكوفة
وبغداد، فقولكم إنّ المذاهب لم تترك شيئاً إلا وبيّنته لا يعني شيئاً سوى أنّ
الحياة قد جمدت منذ ظهور تلك الفكرة إلى يومنا هذا.
المُرِيد : هل يعقل أن يظهر اليوم مثلُ أبي حنيفة ومالك والشافعي؟ أبو
حنيفة يُروى عنه أنه صَلَّى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة!
بايندر : أصلُ المصيبة هنا، في تقديس الرجال، فهل جاء عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كم صَلَّى الفجر بوضوء العشاء؟ وهل عندكم حديثٌ

واحدٌ عن أبي حنيفة أنه رأى فضيلة السَّهر بالليل؟ الليل الذي جعله الله للسُّكون والرَّاحة؟ فلماذا تريدون أن تُظهِروا هؤلاء العلماء بمظهرٍ وكأنهم فوق طبيعة البشر، خارقون للعادة، والواقع أنهم عاشوا حياةً بشريَّةً خاليةً من أيِّ وصفٍ يُجاوِزُ حدودَ طبيعة الإنسان. وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت طبيعيَّةً وسويَّةً، يستطيع كلُّ النَّاس أن يقتدوا به فيها ويعيشوها، بل إنَّ الشُّيوخ الذين ظنُّوا بأنفسهم الخوارق قد جعلوا حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم عسيرة المنال، أعلى من مستوى حياة البشر، ولم يدخروا جهداً لمنع النَّاس من اتخاذهم أسوةً وقُدوةً في حياتهم، ولكن الحمد لله الذي جعل بين أيدينا القرآن الكريم وصحيح الحديث لنقاومَ بهما ما تفترون.

المُرِيد: ما شاء الله! لقد فرغت من الطُّرق ومن المذاهب أيضاً، فما هو

مرادك بعد ذلك سوى أن تُبعدَ الإسلامَ عن واقع الحياة؟ !

بايندر: بل أريدُ أن أُدخِلَ المسلمين في الحياة التي أخرجوا أنفسهم منها، أمَّا أنتم فسنعْمَلون كلَّ طاقتكم لثُعْطَلوا عقولكم، والله تعالى قال: «وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» (يونس، 100/10).

المُرِيد: أيعقلُ إسلامٌ دون مذاهب؟

بايندر: حيثما كان الإنسانُ الذي يستخدم عقله ويأتي بالعمل العلميّ كان معه المذهب، وإغلاقُ باب الاجتهاد يعني تجميدَ العمل العلميّ، بل ويعني تجميدَ الحياة كلّها، ولن تجمد الحياة، والضَّررُ واقعٌ عليكم حين لا تواكبون النُّطُورات وتُحاولون أن تعيشوا بعيداً عن واقع عصركم. والمسلمون قد نسوا منذ عصورٍ مضت أن يتدبَّروا القرآنَ ويعملوا بأحكامه، فنشأ عن ذلك أن ينظروا إليه فقط من باب القداسة بحيث لا يستطيعون فهمه ولا العمل به، حتَّى صار كتاباً لا يُقرأ إلا للتبرُّك، ولا تُفسَّر إلا بعضُ آياته وعظماً وتذكيراً. قال تعالى:

- « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (محمد، 24/47).

- « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ » (القمر، 17/54، 22،

(32، 40).

– « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنُقَهُ وَآتُّمَّ
تَسْمِعُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمِعُونَ » (الأنفال،
20/8-21).

المُرِيد : والمذاهب الموجودة منذ القديم إلى يومنا هذا وما استنبطَ فيها من
اجتهادات، أين نضعه؟ أنجعله وكأنه لم يكن؟
بايندر: انظروا ! في القرآن والسنة موضع واضح وواسع للعقيدة وللأحكام
العملية، ويبقى منه قسم كبير ضيق للاجتهاد، أما الشؤون الدنيوية فنتركت
للإنسان وعلمه داخل ضوابط بينت له، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه
وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"⁸⁷.

لهذا كان العلماء يجتهدون على ضوء القرآن والسنة في الحدود التي
حددت لهم، ويستفيدون مما سبق من اجتهادات العلماء، فهم يقتدون
برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكم بالقرآن، وعليهم أن يستمروا في
وظيفته التي كلفه الله تعالى بها وبينها في قوله: « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.
وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ
بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ
ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (المائدة، 48/5-50).

فالعلماء إذا وجهون الناس إلى القرآن والسنة، وعليهم أن يواظبوا على هذا
العمل، أما إذا منعت الحرية العلمية، وجمدت المذاهب الفقهية في حين ما،

⁸⁷ البخاري، العلم 10؛ أبو داود، العلم 1؛ ابن ماجه، المقدمة 17؛ أحمد ابن حنبل،

ونظرتهم إلى الأئمة الفقهاء على أنهم فوق البشر، فلن تصلوا إذاً إلى مخرجٍ من مشكلاتكم.

34. العودة إلى القرآن

المُريد : علماء المذاهب أهلُ شأنٍ حقاً، فما الصَّرُّ إذا عُدُّوا أعلى من سائر البشر؟

بايندر : الصَّرُّ كبيرٌ، فحينئذٍ يتغيَّرُ أمرُ ديننا، فستصيرُ آراؤهم بديلاً عن القرآن والسُّنة، ونحن نعيش هذه المصيبة.

وليس من الإيمان اعتقادُ مذهبٍ من مذاهب الأئمة، ولن يسألنا الله تعالى عن ذلك يوم القيامة، ولكننا مأمورون جميعاً بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، وطاعته من طاعة الله، قال تعالى: « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » (النساء، 80/4). وفي القرآن الكريم أحدُ عشرَ موضعاً – دون الآية السابقة – فيها الأمرُ بطاعة الله ورسوله طاعةً واحدةً⁸⁸. قال الله تعالى:

– « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (الحشر، 7/59).

– « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » (الأحزاب، 36/33).

– « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (النور، 63/24).

أ – المعجزة

نُعيدُ النَّظَرَ في موضوع المعجزة من وجهةٍ أخرى لما لها من الأهمية.

⁸⁸ آل عمران، 32/3، 132؛ النساء، 59/4؛ المائدة، 92/5؛ الأنفال، 1/8، 20، 46؛ النور، 54/24؛ محمد، 33/47؛ المجادلة، 13/58؛ التغابن، 12/64.

بايندر : لا يوجد في بني آدم من هو أعظم قدراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل فكرتُم في سبب ذلك؟
المُرِيد : طبعاً، فهو رسول الله.

بايندر : كيف يُعلمُ أنَّه رسولُ الله حقاً؟ كيف يُمكنكم إثباتُ ذلك؟
المُرِيد : محمَّد بنْتُ عبد الله آخرُ رسلِ الله، وعلى الكليِّ الإيمانُ به!
بايندر - نعم، وهو كذلك، ولكن كيف للنَّاس أن يعلموا أنَّه رسولُ الله حقاً؟
انتبهوا! لو جاء رجلٌ إلى الحكومة التركيَّة وادَّعى أنَّه سفيرُ الولايات المتحدة الأمريكيَّة، فهل سيُقبَلُ قوله رأساً؟ وهل تبدأ الدَّولة بالتَّعامل معه كُمُمثِّلٍ للولايات المتَّحدة؟

المُرِيد : إذا قدَّم أوراقَ اعتماده التي تُثبتُ أنَّه سفيرٌ مبعوثٌ من قِبَل الحكومة الأمريكيَّة، فإنَّه كذلك حقاً.
بايندر: وكذلك محمد بن عبد الله، هو رسولٌ مبعوثٌ إلينا من عند الله، فعليه أن يأتينا بوثيقةٍ تعيينه رسولاً.

المُرِيد : وهل أنت من القدرِ بذلك المكان؟
بايندر : هذا القدرُ جعله الله لي ولكم ولكلِّ النَّاس، هو الذي قال: « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (آل عمران، 164/3).

المُرِيد : نعم الآن فهمتُ، وثيقةُ إثبات رسالته هي معجزاته صلى الله عليه وسلم.
بايندر : صحيح.

المُرِيد : من تلك المعجزات ما وَقَعَ في غزوة الأحزاب إذ يقول جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: "لَمَّا خَفِرَ الخندقُ رأيتُ بالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم خمصاً (كناية عن الجوع) شديداً، فانكفيتُ إلى امرأتي فقلتُ: هل عندك من شيء؟ فإني رأيتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً. فأخرجتُ إلي جراباً فيه صاعٌ من شعيرٍ، ولنا بُهيمَةٌ داجن

فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في برمتها. ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: لا تفضحني برسول الله ويمن معه. فجنته فساررتة فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك فصاح النبي صلى الله عليه وسلم يقدم الناس، حتى جئت امرأتي فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلت الذي قلت. فأخرجت له عجينة فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: ادع إلى خابزة فلتخبز معي. واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألوف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجينا ليخبز كما هو".⁸⁹

بايندر : كل الرسل جاؤوا بما تثبت به رسالتهم من مثل هذه المعجزات، ناقة صالح عليه السلام، وتحول عصى موسى عليه السلام إلى حية، وإخراج يده بيضاء من جيبه، وخلق عيسى عليه السلام من الطين كهية الطير ونفخه فيه ليكون طيراً بإذن الله، وإحياءه الموتى بإذن الله، وإبرأؤه الأكمه والأبرص، كل ذلك معجزة كالوثيقة تثبت نبوتهم، ومهما بلغت المعرفة من الرقي ومهما تقدمت الاكتشافات العلمية فلن يستطيع الإنسان أن يخرج ناقة من صخرة، أو أن يحول عصى إلى حية تسعى، أو أن يحيي الموتى، أو أن يطعم طعام نفر من الناس آلفاً منهم، ولكن زمان هذه المعجزات قد ولى، فهي لا تصلح لأن تقدم للناس على أنها وثائق إثبات الرسالة والنبوة.

ولنضرب مثلاً قوم صالح عليه السلام حين سألوه إظهار ناقة من صخرة عظيمة هناك، فأوحى الله إليه: «إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ. وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ» (القمر، 28-27/54). جاء في تفسيرها: "يحضرون بهم إلى الماء إذا غابت، وإذا جاءت حضروا اللبن"⁹⁰.

⁸⁹ البخاري، المغازي 29.

⁹⁰ تفسير الطبري، 561/11.

قال الله تعالى: « وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تُتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّكُمْ فَاسْمِعُوا أَوْ لَوْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاسْمِعُوا. فَاسْمِعُوا لَكُمْ وَرَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» (الأعراف، 73/7-79).

ولم يكن يستطيع أحد أن يقف في وجه صالح عليه السلام طول بقاء الناقة حيّة، لأنّ الناقة التي ظهرت من الصخرة العظيمة كانت كالوثيقة التي تثبت رسالته، وأما إذ عُقرت فإنه لم تبق وثيقة تُقدّم للنّاس، فصار كالمفسر الذي يستدعي لوظائف آخر، فكان عليه إما أن يعتزل وإما أن يأتي بوثيقة جديدة، وحين لم يؤته الله معجزةً جديدة اعتزل صالح عليه السلام قومه ثمّ أهلكهم الله.

المُرِيد : أفإذا ماتت النّاقة فنيبت المعجزة؟

بايندر: ومن الذي سيؤمن لصالح عليه السلام بمعجزة هي ناقة مبيّنة؟

ب - معجزة رسول الله

المُرِيد : ومعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ظهرت على يديه لم يبق لها وجود اليوم، فهل صار كالمفسر الذي يفقد صلاحياته بعد أن سُحِبَتْ منه وثائق اعتماده؟

بايندر : لا، معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمسه شيء، لأنّها

في الأصل القرآن الكريم الذي تولى الله تعالى حفظه إلى يوم القيامة، فبقي رغم موت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إنه آخر كتب الله، وقد بين الله به للناس كل ما هم بحاجة إليه. لذا فإن الله عز وجل لن يكلف العباد بحكم جديد، قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (المائدة، 3/5).

المريد : من الذي يتكفل بعمل النبي صلى الله عليه وسلم في التبليغ بعد وفاته؟

بايندر : الله تعالى يوحى إلى رسله ويؤيدهم بالمعجزات ويكلفهم بتبليغ ما أنزل إليهم، والقرآن الكريم الذي أوحى إلى رسول الله هو الكتاب المعجز الذي لم يُحفظ مثله في الدنيا، ولئن كان الوحي قد انقطع، إلا أنه محفوظ بين أيدينا، فما علينا إلا تبليغه كما بين الله لنا ذلك في كتابه، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ» (المائدة، 67/5).

وكل مؤمن يستطيع الاستمرار في تبليغ كتاب الله لأنه ما زال محفوظاً لدينا.

ت - كل مؤمن وارث لرسول الله صلى الله عليه وسلم

المريد : كيف يستطيع المؤمنون كلهم فعل ذلك؟

بايندر : كل مؤمن يستطيع أن يعيش ويبلغ دينه للناس كما أمر الله في القرآن، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ"⁹¹.

المريد : لا يستطيع كل الناس أن يكونوا علماء!

بايندر : الكل عالم فيما يعلم ومتعلم فيما يجهد، فإذا علم مسألة واحدة من القرآن فهو عالم فيها، فإذا بلغها كان وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم

⁹¹ ذكره البخاري عنواناً في الباب العاشر من كتاب العلم ؛ ورواه أبو داود، العلم؛ وابن ماجه، المقدمة17؛ وأحمد، 196/5.

قياساً على الحديث السابق، ثم إنَّ عليه أن يداوم على وظيفة التبليغ، وألاً ينطوي على نفسه تاركاً إيَّاه لرجال العلم وحدهم بزعمه.
المُرِيد : والشيوخ، ألا يستطيعون أن يكونوا ورثة النَّبِيِّ عليه الصَّلَاة والسلام؟

بايندر : ولم لا يكونوا ورثة الأنبياء؟ إذا لم يكن فيهم معتقداً يُخالِف القرآن فهم أهلٌ لأن يكونوا كما ذكرنا.

والوارث يُمثِّلُ وارثه، وله من التركة على قدر تمثيله إيَّاه، لهذا اختلفت حصص الآباء والأمهات والأولاد الذكور والإناث والأزواج والإخوة. وليست الرِّسالةُ مالا يُورث، ولا مُلكاً يتركه الآباء للأبناء.

والنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء، فلن يوحى اللهُ إلى أحد بعده، فوجب تبليغ ما أرسل به من القرآن إلى يوم القيامة، والذي يُبلِّغُه ينوبُ عنه فيه، فهذه هي الوراثة، فالكلُّ وارثُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم على قدر تبليغه القرآن، وهو يمثله فيما يبلغ، لكن هذه الوظيفة أهملت عبر العصور!

المُرِيد : من الذي أهمله؟ وأنى يكون الإهمال؟ وقد انتقلت كتابة القرآن وقراءته وحفظه من جيلٍ إلى جيل، وأشدُّ من يخدم القرآن اليوم الطُّرق التي لم تعجبك، والمنتسبون إليها في المدارس القرآنية يخرجون الآلاف من الحفاظ كلِّ سنة، وأضعافهم عدداً يتعلمون قراءة القرآن.

بايندر : هذا صحيح، فالآلاف منهم من المُعلِّمين يُعلِّمون عشرات الآلاف من المتعلمين في المدارس القرآنية، والمُعلِّم على قدر ما عنده من علم بالقرآن يكون تبجيله، وهذا ما صنعه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد قبل دفن الشهداء الاثنين والثلاثة في قبرٍ واحدٍ إذا قال: ”أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللحد“.⁹²

والسؤال الذي يحتاج إلى جواب هو: كم حظُّنا نحن من الأخذ بالقرآن؟
المُرِيد: من الذين دخلوا المدارس القرآنية مَنْ يعرفُ العديد من سور

⁹² البخاري، الجنائز، 72.

القرآن، ومنهم من حفظ القرآن كله، وأكثرهم يستطيع قراءته.
بايندر: لا أسألك عن هذا، ولكني أقصد ماذا فقهنا من القرآن وكم بلغنا
منه إلى الناس؟

المُرِيد : هذا أمرٌ أعتَرَفُ بأننا مُفَرِّطُونَ فيه.

بايندر: الحمدُ لله! قد قدرْتُ على إقناعكم، وهذا هو الأهمُّ، أنكم قد
اقتنَعْتُمْ.

والذين يُرسلون أبناءهم إلى المدارس لحفظ القرآن يقرؤون أحياناً سورة يس
وتبارك على الأموات وأرواحهم، وربما قرؤوه عليهم مرّةً في السنّة ختماً
أيضاً.

وأشد ما يعتنى به المعلمون ضبطُ المخارج، واحترام قواعد الترتيل
وتصحيح ما حفظ خطأً، وهذا كله صحيحٌ ولازم، لكنَّ العمل لا ينتهي
عنده، بل هو البداية، ثمَّ إنَّه لا بدَّ من النَّفس الطويل من أجل فقه القرآن
وحسن فهمه.

ث - الذِّكْر

المُرِيد : في المدارس يتلقَّى الطُّلابُ علوماً مختلفةً كالعربيَّة والفقه
والتفسير والحديث والكلام، وكانت هذه العلوم تُدرِّسُ تدريساً أوسع في
السَّابِق، أوليس القرآن هو المصدر الأوَّل لهذه العلوم؟
بايندر : انتبهوا إلى أنَّ الذِّكْرَ هو من أسماء القرآن! قال تعالى: « إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الحجر، 9/15).

الذِّكْرُ هو الحفظُ للشَّيءِ وتذكُّرُه (لسان العرب، أجعله فيما بعد في
الحاشية)، وتارة يُقالُ ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفس بها يُمكنُ للإنسان أن يحفظ ما
يقتنيه من المعرفة... وتارة يُقالُ لحضور الشَّيءِ القلبِ أو القول (هذا من
المفردات فقط).⁹³

والتَّوراة والزَّبُور والإنجيل وما أُوتيه الرُّسُلُ من مواعظٍ وأوامرٍ ونواهِ كلِّ ذلك

⁹³ لسان العرب لابن منظور؛ والمفردات للراغب الأصفهاني، مادة (ذكر).

تجمعه عبارة الذِّكْر⁹⁴، والقرآن يحويه كُله، فحفظُ القرآن يعني حفظَ الكتب السماويَّة كُلهَا، والذي يُحسُن فهمَ القرآن يكون قد أحسنَ فهمَ تلك الكتب أجمع.

المُرِيد : إذا كان الذِّكْرُ هو حفظُ شيءٍ ثمَّ استحضاره باللسان والقلب، فهو ممَّا يُقدَّرُ عليه كلُّ مسلمٍ، فكلُّ مسلمٍ يحتفظُ في قلبه بما حفظَ ثمَّ يستخرجه عند الحاجة ليقراه.

بايندر : إذا حُفِظَ شيءٌ في القلب فإنَّه قد يصحُّه تصوُّره وقد لا يصحُّه، فإذا حُفِظَ دون تصوُّره فإنَّه لا يُقالُ له ذكْرٌ، إنَّما هو حفظٌ عن ظهر قلب. والذِّكْرُ تارة يُقالُ ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفْسِ بها يمكن للإنسان أن يحفظَ ما يكتنيه من المعرفة.⁹⁵ والأصل هنا هو العلم بذلك المحفوظ، أمَّا الحفظ وحده فليس بعلمٍ، والمعرفة إدراكُ الشَّيء على ما هو عليه.⁹⁶ ومن الذِّكْرِ اشْتَقَّتِ الألفاظُ: التَّنْكَرَةُ والمُذَاكِرَةُ وأهلُ الذِّكْرِ، فإذا فُهِمَتْ هذه الألفاظُ فُهِمَتْ مواضعُها.

والتَّنْكَرُ استحضارُ الشَّيء في الذَّهن أو جعلُ غيرك يستحضره، قال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْبِرُونَ » (الأعراف، 201/7). والتَّنْكَرُ المقصودُ هنا هو استحضارُ آيات الله والتَّفَكُّر فيها.

والمُذَاكِرَةُ مُفاعلة من الذِّكْرِ، تُفيدُ اشتراكَ طرفين على الأقلٍ فيه. وأهلُ الذِّكْرِ هم الذين اكتسبوا علماً وقيدوه في أذهانهم بحيث يستطيعون نشره متى شاؤوا، فعن أهل العلم قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (الأنبياء، 7/21). وجاء تفسيرُ عبارة أهل الذِّكْرِ في الآية بأنَّهم أهلُ الكتاب.

⁹⁴ أنظر سورة الأعراف، 63/7-69؛ والحجر، 6/15؛ والنحل، 43/16؛ والأنبياء، 24/56.

⁹⁵ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، مادة: (ذكر).

⁹⁶ التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني، ص. 221.

وكانَ القرآنُ ذكراً لأنَّهُ يُحَفِّظُ في الصُّدُورِ، وبه يُنذِرُ النَّاسَ لِحَيَاوِا، وهذه الآيةُ تُبَيِّنُ هذا: « إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمْتُمْ لَكِنَّا تَحَزُّونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » (آل عمران، 153/3). وقال عَرَّ وجلَّ: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» (الغاشية، 21/88-22).

ج - التَّعْلِيمُ فِي الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ

المُريد : إغلاقُ مدارسِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ، وعدمُ تزوُّدِ النَّاسِ بما يكفي من علومها كاللِّتْسِيرِ والحديثِ والفقهِ والكلامِ، وقِلَّةُ تعليمِ العربيَّةِ، كلُّ ذلك آل بنا إلى هذا الحال الذي نحن عليه.

بايندر: لقد تحوَّلت المدارسُ الدِّينِيَّةُ منذُ عصورٍ عديدةٍ إلى مدارسِ اللُّغَةِ العربيَّةِ وآدابها، ودُرِسَ كلُّ من الفقهِ والتَّفسيرِ والكلامِ وما إلى ذلك بنصوصٍ عربيَّةٍ، وأهمِّيَّةُ العربيَّةِ لا تُناقشُ، لأنَّ القرآنَ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ، وإنَّما أُغْلِقَتِ المدارسُ أبوابها حين لم تعمل على تحقيق هدفها المنشود، فتحوَّلت إلى مدارسٍ للغة العربيَّةِ.

والذي يقرأ العلومَ الدِّينِيَّةَ بهذا الشَّكْلِ لا يكتسبُ القُدْرَةَ على توظيفها في ضوء القرآن وحقائق الحياة، وينقطعُ بسبب ذلك عن الواقع، ويظنُّ النَّاسُ أنَّه عالمٌ من علماء الفقهِ والتَّفسيرِ وغير ذلك من العلومِ الدِّينِيَّةِ فيضِلُّ ويُضِلُّ كثيراً، ويسيءُ إلى الإسلامِ والمسلمين.

والإسلامُ مُطابِقٌ بأحكامه العالميَّةِ لفطرة الإنسان تماماً، كما تنطبقُ تلك الأحكامُ مع الطَّبيعة، لذا فلا بُدَّ من تطابقِ الحياة الاجتماعيَّةِ مع القرآن الكريم، إلَّا أنَّ الإنسانَ قد يُخالفُ هذه الفِطْرَةَ ويتَّبِعُ ما تُوحِيه إليه الأغراضُ الشَّخصِيَّةُ والميولاتُ النَّفْسِيَّةُ، فيقومُ بعمل ما يُفسدُ الفِطْرَةَ، فطرة الله التي خَلَقَ النَّاسَ عليها.

والذي يقومُ بهذه الأفعالِ يسيرُ وراءَ أهوائه، وينساقُ لأحكامٍ مُسبِقة، وبالتالي يُوقِعُ نفسه في المتاعبِ والمصائبِ بل ويتعدَّى ضرره إلى

الآخرين إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ.

وكلُّ ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ خُلِقَ من أجلنا، قال الله تعالى: « اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمَاوَاتِ وما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (الجاثية، 12/45-13). وقال أيضاً: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (البقرة، 29/2).

وعلينا أن نُوجِّهَ أعمالنا العلميَّة إلى حيثُ نستفيدُ بقدرٍ أكبر ممَّا خُلِقَ من أجلنا، وإذا اتَّخَذَ الْقُرْآنُ مداراً للأبحاث العلميَّة، كان هذا أكثرَ سعةً لأفُق الباحث وأحسنَ حفظاً للموازين. قال اللهُ تعالى: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (الروم، 29/30-30) والإسلامُ دينُ الفِطْرَةِ، والقُرْآنُ كذلكُ كتابُ الفِطْرَةِ، لهذا كان يَضُمُّ مبادئَ أيِّ موضوعٍ من المواضيع، فكان على المدرسة الدِّينيَّة أن تهتمَّ بكلِّ فروع العلوم عن كُتُبٍ مُكْتَفَئةٍ اعتماداً على القرآن، وأن تجعلَ الْقُرْآنَ العمودَ الْفَقْرِيَّ لكلِّ نهضةٍ مادِّيَّةٍ ومعنويَّةٍ.

وقد كان بإمكانها أن تجعلَ الفقه والكلامَ وغيرهما من العلوم جزءاً من هذه الأعمال العلميَّة، لأنَّ ما يَتَّصِلُ بها من آياتٍ قد يصلُ إلى خمس مئة آية، بل وفي هذه الآياتِ أحكامٌ تتعلَّقُ عن قرب بفروعٍ أُخرى من العلوم أيضاً، لكنَّ المدارس لم تهتمَّ بهذه الآياتِ فَقطَّعتْ بذلك كلَّ صلةٍ للقرآن بالحياة !

القرآنُ كتابُ الفِطْرَةِ، لهذا كان يعني النَّاسَ كلَّهم، فكلُّهم يجدون فيه ما يَخْصُصُهُم، وعلى كلِّ إنسانٍ أن يسعى لفهم القرآن على ضوء ما عنده من علمٍ ومهارةٍ وتجاربٍ، وكانتِ المدارسُ الدِّينيَّةُ تستطيعُ أن تُؤدِّيَ دوراً مُهمَّاً في هذا المجال، لكنَّها لم تفعل، وما زلنا نحن اليوم كذلكُ بَعِيدِينَ جَدَّاً عن

هذه الوظيفة.

العلوم الطبيعية تتوجه نحو فهم الفطرة والاستفادة بشكل أكبر من الطبيعة، والقرآن والفطرة كلاهما لا يتغير، فلا يوجد كتاب آخر يحل محل القرآن، ولا أي شيء آخر يحل محل المخلوقات، ولا يقع بينهما تناقض أبداً، فإن ظهر تناقض، فإنما هو خطأ في الفهم، فعلى العلماء المتخصصين في تفسير القرآن أن يتعاونوا مع المتخصصين في العلم المعني ويحاولوا إزاحة سوء الفهم حول ذلك، فالواجب تناول العلاقة الموجودة بين القرآن والعلوم الطبيعية على هذا النحو.

وكذلك الحياة الاجتماعية لا تناقض بينها وبين القرآن، فإذا بدا أي تعارض بينهما اتبعت المنهجية نفسها في تناول المواضيع بعيداً عن الميولات الذاتية، وهذه المنهجية هي التي ينبغي سلوكها حين التطرق للعلاقة بين القرآن والعلوم الاجتماعية.

والذي يدرس الموضوعات على هذه الصورة يكون قد اكتسب شخصية ذات علم ديني فيمكن أن تكون فكرته فكرية عالمية، كما تكون أفكاره شاملة، وهو يستفيد أيضاً من العلوم الدينية، الاجتماعية، والرياضية على حد سواء، فيحسن حينئذ فهم القرآن الكريم، ويمكن المساهمة في تحقيق التقدم في جميع الساعات الحياتية.

ويستطيع الإنسان أن يفسد البيئة التي يعيش فيها كما يستطيع أن يصلحها، ونحن نرى أن الأماكن الخالية من البشر لا تتعرض للفساد، أما الأماكن المعمرة بالناس فيكثر فيها الفساد بما كسبت أيدي الناس. كما قال الله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الروم، 41/30).

على الإنسان أن يكون على علم بهذه الأمور، كما أن عليه أن يعيش حسب مقتضيات الفطرة، وأن لا يعتدي على غيره، وعليه أن يبحث عن السبل التي توفر له النجاح في الإمتحان الكبير لدخول الجنة حتى يشبع كل ما تشتهي نفسه من ملذات.

وإذا كَانَ الْقُرْآنُ محورَ الأعمالِ الْعِلْمِيَّةِ كَانَ مِنَ السَّهْلِ تَقْدِيمُ التَّرْبِيَةِ لِلنَّاسِ، إِلَّا أَنَّ الْمَدَارِسَ إِذَا لَمْ تُؤَدِّ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا فِي الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَغَيْرِ الدِّينِيَّةِ أَغْلَقَتْ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا.

المُرِيدُ : فَأَيْنَ تَضَعُ أَقْوَالَ وَأَفْعَالَ النَّبِيِّ ؟ أَعْنِي سُنَّتَهُ الشَّرِيفَةَ؟

بايندر : كُنَّا قَدْ تَطَرَّقْنَا لِهَذَا الْمَوْضُوعِ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنَّا نَتَعَرَّضُ لَهُ هُنَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، لَقَدْ كُفِّفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَبْيِينِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل، 44/16). وَعَلَيْهِ فَإِنَّ كُلَّ فِعْلِ صَدَرَ مِنْهُ عَلَى صِفَةِ النُّبُوَّةِ فَهُوَ إِبْضَاحٌ لِآيَةٍ مَا فِي الْقُرْآنِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا كَذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ يَجِبُ أَنْ يُعْتَبَرَا مَصْدَرًا وَاحِدًا وَلَيْسَ مَصْدَرَيْنِ مُسْتَقْلَمَيْنِ بَعْضُهُمَا عَنِ الْبَعْضِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ طَرِيقُ فَهْمِ السُّنَّةِ مَفْتُوحًا.

المُرِيدُ : عَلَيْنَا أَنْ نَضَعَ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ فِي مَوْضِعِهَا الْخَاصِّ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْإِطَارِ يَجِبُ وَضْعُهُ فِي مَحَلِّهِ.

بايندر : إِنَّ دَرَسَةَ الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ وَمَا شَابَهُمَا بِمَتُونِهَا الْعَرَبِيَّةِ بَعِيدٌ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَيَاةِ الْوَاقِعِيَّةِ نَتَجَّ عَنْهُ أَنْ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْمُصَنَّفَاتُ مُقَدَّسَةً وَحَلَّتْ مَحَلَّ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.

وَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ نَذَكُرُ مَا قَالَهُ عَبِيدُ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْكَرْخِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَنْفِيَّةِ (340هـ/951م) فِيْمَا مَعْنَاهُ: "وَكُلُّ نَصٍّ يُخَالِفُ أَقْوَالَ عُلَمَائِنَا فَهُوَ إِمَّا مَنْسُوخٌ أَوْ مَرْجُوحٌ بِطَرِيقٍ مِنْ طَرُقِ التَّرْجِيحِ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْمُعْوَلَّ عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَلَيْسَ عَلَى النَّصِّ".

وَلَمْ يَخْلُ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ مِمَّنْ يُدَافِعُ عَنْ هَذِهِ الْمَتُونِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ، إِلَى دَرَجَةِ أَنْ يُحَكَّمَ بِالْكَفْرِ عَلَى مَنْ يُخَالِفُ قَوْلَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَقَدْ شَاهَدْتُ هَذَا حِينَ كُنْتُ طَالِبًا فِي أَوَاخِرِ السِّتِينَاتِ وَأَوَائِلِ السَّبْعِينَاتِ فَمَنْ كَانَ يُخَالِفُ قَوْلَ الْكَرْخِيِّ يُحَكَّمُ عَلَيْهِ بِالْكَفْرِ.

وَهَذِهِ الْأَفْكَارُ الْمَغْلُوطَةُ فِي عَالَمِ الْمُسْلِمِينَ جَعَلَتْهَا نَقَوْمٌ بِإِجْرَاءِ الْبَحْثِ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ عَلَى ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا الْكِتَابُ يُعْتَبَرُ مِنْ

هذه البحوث الهامة.

ولم يكن سهلاً علينا التخلُّص من الرواسب الفكرية الجامدة لأننا عشنا في نفس البيئة.

والكرخي الذي يُعظَّمُ قوله عالمٌ تُوفِّي في القرن الحادي عشر، فالخطب عميقٌ إذاً.

لا يُمكنُ قبولُ هذا الوضع البتَّة، وكان يجبُ على العلماء المجتهدين أن لا يعتبروا قولاً مثل هذا القول للكرخي.

قال عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه يوماً على المنبر: "يا أيُّها النَّاسُ إنَّ الرُّأيَ إنَّما كانَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصيباً، إنَّ الله كان يُريه، وإنَّما هو ممَّا الظَّنُّ والتَّكفُّفُ".

وإنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه نزلت به قضيةٌ فلم يجدُ في كتاب الله منها أصلاً ولا في السُّنَّة أثراً فاجتهد برأيه ثمَّ قال: هذا رأبي، فإن يكُ صواباً فمن الله، وإن يكُ خطأً فمنيَّ وأستغفرُ الله.

وكتَّبَ كاتبُ لعمر بن الخطَّابِ: هذا ما رأى الله ورأى عمر، فقال: بئسَ ما قُلْتَ، قل: هذا ما رأى عمر، فإن يكُ صواباً فمن الله، وإن يكُ خطأً فمن عمر.

وعن عمر أنَّه لقي رجلاً فقال: ما صنعت؟ قال: قضى عليَّ وزيدٌ بكذا، قال: لو كنتُ أنا لقضيت بكذا، قال: فما يمنعُك والأمرُ إليك؟ قال: لو كنتُ أردُّكُ إلى كتاب الله أو إلى سُنَّة نبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفعلتُ، ولكنتُ أردُّكُ إلى الرُّأي، والرُّأيُ مُشترِكٌ، فلم ينقضْ ما قال عليٌّ وزيدٌ.⁹⁷ وقد روى أبو يوسف والحسن بن زياد كلاهما عن أبي حنيفة أنَّه قال: "علمنا هذا رأبي، وهو أحسنُ ما قدرنا عليه، ومن جاءنا بأحسنَ منه قبلناه".

وقال معنُ بن عيسى القرَّاز: سمعتُ مالكا يقول: "إنَّما أنا بشرٌ أُخطئُ

⁹⁷ إعلام الموقعين لابن القيم، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 65/1 المكتبة

العصرية، صيدا-بيروت 1407هـ/1987م.

وأصيب، فانظروا في قلبي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه".⁹⁸

وكان يكثر مالك أن يقول: "إن نظنُّ إلا ظناً وما نحن بمستيقنين".⁹⁹ وقال سلمة بن شبيب: سمعتُ أحمد يقول: "رأي الشافعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله عند رأي، وهو سواء، وإنما الحجَّة في الآثار".¹⁰⁰ فحين قُدِّم الكتاب والسنة على الآراء كان أمر الأمة على ما يُرام، ولكننا وجدنا المصنِّفات قد حذفت منها الآيات والأحاديث فلم يبق إلا آراء مُصنِّفيها، حتَّى جاء من العلماء من رأى تلك الآراء كافيةً لفهمها ثمَّ تبليغها للأجيال، ففدست تلك المصنِّفات واستبدل بها الكتاب والسنة، فهنا هي المدارس التي تتباهون بها قد استبدلت تلك الكتب بفهم كتاب الله تعالى، فكان حالها هذا أقصى ما بلغته من عز.

بل إنَّ من الصحابة من لم ير كتابة الحديث خوفاً منه على القرآن، يقول صبحي الصالح في هذا الشأن: "عن عروة بن الزبير أنَّ عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث عمر شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه، ثمَّ أصبح يوماً وعزم الله له، فقال: إني كنتُ قد ذكرتُ لكم من كتاب السنن ما قد علمتم، ثمَّ تذكرتُ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم، قد كتبوا مع كتاب الله كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيءٍ أبداً، فترك كتابة السنن".¹⁰¹ وما كان عمر رضي الله عنه يتخوف منه قد وقع حقاً، فلقد كُتبت كتب مع كتاب الله، فهجر القرآن، بل وهجرت حتَّى السنة في هذا الزمان! وبهذا

⁹⁸ المرجع السابق.

⁹⁹ المرجع السابق.

¹⁰⁰ المرجع السابق.

¹⁰¹ علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح، ص 39-41، دار العلوم للملايين،

الطبعة الخامسة، بيروت 1969

هَجَرَ المسلمون العلومَ الطَّبِيعِيَّةَ وَالإِنْسَانِيَّةَ لأنَّهم بدؤوا يطلبون قراءةَ القرآنِ فقط لينالوا به عرضَ الدُّنيا، فلا يقصدون فهمه ولا العملَ به، بل كان كلُّ ما يهتمُّون به هو عددُ الأجزاء التي حفظها الواحدُ منهم؟ وتشاغلوا بختم القرآن، وركَّزوا كلَّ مقدراتهم في نطق الحروف التي لا يُحسنون مخارجها، فابتعدوا عن حقيقة أنَّ القرآنَ كتابٌ أنزله اللهُ لِيُبيِّنَ للنَّاسِ الحياةَ السَّعيدةَ وما فيها من مبادئ العلوم التي يستفيدون منها.

كلُّ هذا فتح الأبواب التي يسهلُ منها العبورُ إلى تعدي خُرُماتِ الله، وكان منها الرِّبا الذي هو من أشدِّ ما حرَّمَ اللهُ في كتابه، إلا أنَّ المسلمين تركوا القرآنَ والسُّنَّةَ وأكبُّوا على كتب الفقه.

فُتِحَ بسبب ذلك على النَّاسِ بابُ الرِّبا، واستغلَّت الأوقافُ المصرفيَّةُ هذا الموقفَ، فأبسَّست منها الآلافُ لإقراض الرِّبا تحت غطاء البيع الصُّوري الذي يُسمَّى ببيع العينة أو بالمعاملة الشرعيَّة.

وفي أرشيف السِّجَلاتِ الشرعيَّةِ بدار الفتوى في اسطنبول الآلافُ من العقود على هذا النمط، هذا واحدٌ منها: اشترى أحمدُ نائل كتابَ فتاوى علي أفندي التَّابع لوقف "كليي ناظري"، واستدان ألفين وخمسة مئة قرش (2500) (خمسة وعشرين ديناراً (25)، وكلُّ دينارٍ سبعُ غراماتٍ وثلاثةُ أجزاءٍ من عشرة (7,3) من الذهب) على أن يردها بعد خمس سنواتٍ ومعها ألف وخمسة مئة قرش (أي 15 خمسة عشر ديناراً). فيكون دينُ أحمد نائل أفندي قد زاد بـ 37,5% في نهاية هذه المعاملة، ثمَّ يهبُ الكتابَ إلى الوقف مرَّةً أُخرى !

والذين يغضُّون أعينهم عن حكم الكتاب والسُّنَّة ويحكِّمون بعض الكتب الفقهيَّة فيما شَجَرَ بينهم يُجوزون هذه المعاملة الصُّوريَّة، بل يستحبُّونها هروباً من الحرام بزعمهم !

وكان باسطنبول في العهد العثمانيِّ ساعةٌ جيبٍ في صندوق الأمانة في المصارف التي كانت موجودةً آنذاك، فكان يأتي في اليوم الواحد عشراتُ الأشخاص ممَّن يُريدُ القرضَ فيشتريها من الصندوق ثمَّ يهبُها له ثانيةً،

زِعْمًا أَنَّ هَذَا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْمُعَامَلَةِ الرَّبَوِيَّةِ، بِالرَّغْمِ أَنَّهَا مُعَامَلَةٌ رَبَوِيَّةٌ فِي صُورَةِ الْبَيْعِ.

إِنَّ التَّعَدِيَّ عَلَى حُرْمَةِ الرِّبَا بِهَذِهِ الصُّورَةِ كَانَ سَبَبًا فِي التَّعَدِّيِّ عَلَى شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِحُدُودِهِ.

وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُحَدِّثُ مِنْ بَيْعِ الْعَيْنَةِ فِي قَوْلِهِ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ دُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ".¹⁰² وَلَوْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ شَرَعُوا تِلْكَ الصُّورَةَ مِنَ الرِّبَا نَظَرُوا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَوَجَدُوا أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ فَعَلْتَهُمْ هَذِهِ وَبَيْنَ مَا فَعَلَ الْيَهُودُ مِنْ تَعَدِّيِّ حُدُودِ اللَّهِ يَوْمَ السَّبْتِ.¹⁰³

المُصَنَّفَاتُ الْفَقْهِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُسْتَنْسَخُ بَعْدَ مُؤَلَّفِهَا رَبَّمَا زِيدَتْ فِيهَا بَعْضُ الْأَرَءِ عَمَدًا، وَلَعَلَّ مَسْأَلَةَ الْمُعَامَلَةِ الشَّرْعِيَّةِ (الرِّبَا فِي صُورَةِ الْبَيْعِ) الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرَةً هُوَ مِنْ تِلْكَ الزِّيَادَاتِ، لِأَنَّهَا وَجَدْنَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الْفَتَاوَى الْخَانِيَّةِ لِحَسَنِ بْنِ مَنْصُورِ الْأَوْزَجْنِيِّ الشَّهِيرِ بِقَاضِي خَانَ وَقَدْ نَسَبَهُ لِأَبِي يُوسُفَ، عَلَى رَغْمِ الْبُعْدِ الزَّمَنِيِّ بَيْنَهُمَا؛ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا يُوسُفَ مُتَوَفَّى سَنَةَ 183 هـ وَقَاضِي خَانَ مُتَوَفَّى سَنَةَ 592 هـ أَيُّ يَوْجَدُ بَيْنَهُمَا أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَالْمُؤَلَّفَاتُ الَّتِي دُوِّنَتْ أَثْنَاءَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ نَقَلَتْ إِلَيْنَا آرَاءَ الْحَنْفِيَّةِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّهَمْ لَا يَرُونَ الْجَوَازَ، فَيُحْتَمَلُ احْتِمَالًا كَبِيرًا أَنْ يَكُونَ قَاضِي خَانَ قَدْ كَتَبَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ مَنْ أَضَافَ تِلْكَ الزِّيَادَاتِ إِلَى الْكِتَابِ عَنْ سُوءِ قَصْدٍ وَنِيَّةٍ.

وَمَهْمَا كَانَ الْمَرْءُ صَاحِبَ عِلْمٍ وَفَضْلٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ فِي الْخَطَأِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُرْسِخَ فِي الْأَذْهَانِ أَنَّ مَا نَحْنُ مُخَاطَبُونَ بِهِ هُوَ

¹⁰² أبو داود، البيوع 54؛ أحمد ابن حنبل 84/2؛ نصب الزاوية للزليعي، القاهرة

1357هـ، 16/4-17، فيه تخريج الحديث وإثبات أن رجاله نقات.

¹⁰³ أنظر موضوع تعدي اليهود يوم السبت تحت عنوان "الشرك الذي أغرق المسلمين

القرآن الكريم، وأن نعرض حياتنا كلها من بدايتها إلى نهايتها عليه، وإلا
كنا ممن قيل فيه:

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا.
يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا. وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» (الفرقان، 27/25-30).

المُرِيد : وماذا علينا أن نعمل بعد هذا؟

بايندر: الذي يجب اتباعه هو منهجية يسيرة وسهلة يكون منها التغيير،
فإذا بحثنا في حكم أي مسألة فعلينا - كما هو معروف في الفقه - أن
ننظر في القرآن أولاً، ثم في السنة ثانياً للوصول إلى فهم تلك الآيات
القرآنية، ثم بعد ذلك في الإجماع، وأن نقرأ ما كتبه المجتهدون، وعلينا أن
نتبع هذه المنهجية ذاتها ونحن نبلغ الناس أمور دينهم.
وأضرب لكم الصوم مثلاً: فإذا أردنا أن نعرف ما يفسده قرأنا الآيات التي
نزلت فيه أولاً، ثم الأحاديث التي تبيّن هذه الآيات، ثم نظرنا في آراء
العلماء المجتهدين وما أجمعوا عليه من الأحكام المستنبطة من القرآن
الكريم والسنة النبوية الشريفة، هذا التصور يصلنا بالقرآن والسنة، ويبعدنا
عن الخرافات الدخيلة.

قال الله تعالى: « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ
فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (الحديد، 16/57).

الخاتمة :

في النهاية أريد أن أنبه إلى أن الذي عارضته في مقامنا هذا لم يكن إلا
ما خالف القرآن مخالفة ظاهرة وبيّنة من الأقوال والأفعال التي ارتبطت
بالطرق الصوفية.

مهما كان الدافع إلى تلك المخالفات، وتحت أي اسم صدرت فإن ردّها

ومحاربتها فرضاً على كلِّ مُسلمٍ، وهو طريقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يجب سلوكه.

إنَّ التفافَ جماعةٍ من النَّاسِ حول شيخٍ ليعيشوا معه الإسلامَ مُحكِّمينَ القرآنَ والسُّنَّةَ في حياتهم ممَّا يستحقُّ الاحترامَ والتَّقديرَ.

أمَّا أن ينسبوا إلى شيخهم بعد ذلك ما لا يليقُ من الصِّفات والمقامات المعنويَّة مُتَّخذين إيَّاه واسطةً ووسيلةً بينهم وبين الله، ويدعو إلى الارتباط به، فهذا ما لا يُمكنُ قبوله أبداً.

وعلينا أن نعيشَ مُقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كانَ أبعَدَ النَّاسِ عن الغلوِّ في الدِّينِ وأتقاهم لله فيما أمرَ به ونهى عنه، حتَّى نكسبَ دُنيانا وآخرتنا ولا نخسرهما.

لم أبتغ من وراء هذه المناظرة إلا نيلَ رضا الله تعالى، ولا مانعَ من أن أقعَ في الخطأ إذ أنا بشرٌ، والذين يُعارضون شيئاً ممَّا كتبته لهم الحرِّيَّةُ في انتقاد ما يرونه خطأً بشرطِ أن يستندوا إلى الكتاب والسُّنَّة، فيكونوا بذلك سبباً في إنقاذ المُسلمين من الهاوية التي سقطوا فيها.
والله وليُّ التَّوفيق

الترجمة: د. محمد روزي باقي

المراجعة والتحرير: جمال أحمد نجم